

الأماليك المقتري عليهم (٢)

سيف الدين قطز

قاهر المغول

نور الدين خليل

الممالك المفتري عليهم (٢)

سيف الدين قطز

قاهر المغول

نور الدين خليل

الإهداء

إلى شهداء

الحملة الصليبية الأمريكية

تمهيد

هذا هو الكتاب الثانى فى سلسلة (الممالك المفترى عليهم) ، بعد صدور الكتاب

الأول : شجرة الدر ، قاهرة الملوك ومنقذة مصر .

وتحاول هذه السلسلة تناول الحقبة المملوكية فى مصر والشام ، وتجليسة سير وتراجم عظام الممالك من ذوى الخطر، والتذكير بأدوارهم الرائعة المضيفة التى يشرق بها التاريخ العربى والإسلامى . وعلى ذلك فإن هذه السلسلة تهدف إلى إبراز تاريخ العرب والمسلمين فى القرن الثالث عشر الميلادى فى مصر والشام . وتكاد تقتصر تلك الفترة بوجه عام على أخطر حدثين داهما الأمة الإسلامية ، وكانا وبالا على التاريخ الإنسانى كله .

الحدث الأول ، وهو الأخطر، الحملات الصليبية التى أطلقتها أوروبا المسيحية فى القرن الحادى عشر ، فأنحرفت عن بغيتها المعلنة ، ألا وهي تحرير الأراضى المقدسة وقبر الرب من الكفرة المسلمين ، وانقلبت إلى لهو وعبث طوال ما يقرب من ثلاثة قرون ، عانت فيها الإنسانية معاناة كبيرة ، وأزهقت أرواح كثيرة ، وسالت دماء غزيرة ، طوال ما يقرب من ثلاثة قرون ، بل عانى فيها مسيحيو الشرق الأرثوذكس من بنى عقيدتهم المسيحيين الكاثوليك معاناة بالغة ، واستباحت الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية وخُنقت ، واستبدلت بالكبرى الكاثوليكية لفترة من الزمان .

وكانت المحصلة النهائية بعد انتهاء الحملات الصليبية وطرد آخر جندي صليبي من الشرق أن استفادت أوروبا أكبر الفائدة ، إذ كانت الحضارة الإنسانية مركزة لدى العرب المسلمين ، والقليل لدى بيزنطة الأرثوذكسية التى كانت هى الأخرى تأخذ وتتعلم وتتطور

من الحضارة العربية الإسلامية . فكانت الحروب الصليبية بمثابة الجسر الذي عبرت عليه الحضارة الإنسانية من بلاد العرب إلى أوروبا . وعلى ذلك فإن الحضارة الأوروبية الحالية قد ولدت في القرن العاشر في المهد العربي الإسلامي ، ثم شبت عن الطوق وأصبحت على ما هي عليه الآن .

وانتهت الحملات الصليبية بمجئ المماليك ، وكأنما كانت تلك النهاية على موعد مجئ المماليك . ومن الحق أن الحملات الصليبية كان لها أن تنتهي في وقت من الأوقات ، غير أن الفضل يرجع إلى المماليك في اجتثاث شأفة الصليبية والصليبيين من الشرق العربي . على أنه بانتهاء الحملات الصليبية هذه في بداية القرن الثالث عشر فإنها دخلت في فترة بيات طويلة ، طالت حتى القرن العشرين ، ثم بعثت من جديد . فالحملات الصليبية إذن لم تمت ولم تذهب إلى غير رجعة كما يظن البعض من الجاهلين والمتعالمين ، لكن هذا حديث آخر ليست هذه الصفحات مجالا مناسباً للإسهاب فيه .

والحدث الثانى الذي يعد علامة من علامات الحقبة المملوكية هو بروز القوة المغولية وانطلاقها من أقاصى آسيا واندفاعها غربا كالإعصار المدمر واجتياحها لكل ما تجده أمامها ، إلى أن أوقفها بطل هذا الكتاب ، ثم أجهز عليها المماليك من بعده وطردها من العالم العربى كله .

ومما لا شك فيه أن التاريخ أهمل المماليك ولم يعطِ الفترة المملوكية هذه حقها من البحث والتمحيص ، وفى ذلك ظلم للمماليك برغم أعمالهم المضنية الباهرة ، وأبيادهم الكريمة المبهرة ، وإنجازاتهم الخارقة الجبارة ، وسيرتهم العطرة السيارة .

كما أن المؤرخين، القدماء منهم والمحدثين ، انشغلوا عن الممالك بغيرهم ، وأغدقوا صنوف المديح والإطراء على الخلفاء والأمراء ، على اختلافهم وتنوع دولهم ، فلا نكاد نعثر على ما يذكر للممالك العظام ، برغم ما أسدوه للعرب والمسلمين ، بل وللإنسانية من أياذى لا نقل عما قدمه غيرهم من عواهل الخلفاء والأمراء ، إلا القليل منهم .

كما أن أغلب المؤرخين الغربيين ، من الحاقدين على الإسلام ، يجدون متنفسا لأحقادهم الدفينة فى تزييف التاريخ وحقائقه وأحداثه ، فهناك على سبيل المثال من يتجاهل شجرة الدر، وهى أول سلاطين الممالك ، ولو حتى بإشارة عابرة ، وإنما يعتبر زوجها عز الدين أيبك أول سلاطين الممالك . وهناك فئة من الكتّاب العرب الذين يستهون بما يكتبه الغربيون وينقلون عنهم نقلا أعمى، بل ويدافعون عنهم وعن آرائهم، متناسين أن الغرب أخذ عن مؤرخينا القدماء .

إن تناول التاريخ المملوكى وغيره من ماضى أمجاد مصر وأبطالها ، وهم كثير ، واجب قومى يتعين تيسيره للأجيال الصاعدة ، كي تتخذ من أبطاله مثلا يحتذى . فالأمر تقوم على سواعد أبنائها وعقولهم وضمائرهم ، وما لم تطلع أجيال المستقبل على الأمجاد الماضيه ، فمن أين تُستمدّ الغيرة ، وتُسئلهم العبرة ، وأنّى لتلك الأجيال أن تدفعها الحميّة ، وإلى ماذا تتطلع ، إلّا أن تتساق وراء الغث مما تحمله التيارات المضلّلة ، والمغريات المنحرفة ، والمُغويّات المريضة ، وما يطلقون عليه من حضارة هي فى حقيقتها قشرة مادية لامعة لا معنى لها فى تطور التفكير الإنسانى، بل تخفى وراءها عقولا خربة ، وضمائر خاوية ، وأفئدة ترعى فيها الديدان .

وما أخرجنا ، فى هذا القرن الحادى والعشرين الذى نشهده ، إلى أمثال المماليك العظام
ليستردوا القدس الشريف السجين ، ويذودوا عن أطفال فلسطين ، ويحرروا أرض الإسلام
والعروبة من نير الذل والعار، ويذيقوا الصليبيين الجدد كأسهم المعتقة التى ذاقها أجدادهم
قبل ألف عام .

ونظرا للأهمية البالغة لهذين الحداث فى الحقبة المملوكية ، خاصة الحدث الأول
المتعلق بالحملة الصليبية ، ولمزيد من الإفادة والإيضاح ، فقد حرصنا على أن يشتمل كل
كتاب من كتب هذه السلسلة على فصلين لا يتغير محتواهما إلا فيما ندر، هما "المماليك"
و"الخلفية التاريخية"، وسيجد القارئ فى هذين الفصلين منشأ المماليك وبروز دولتهم ،
والتحالف الشرير بين الصليبيين والمغول. وما هذا التكرار إلا لحرصنا الشديد على تجلية
أحداث تلك الحقبة التاريخية وما حوته من أحداث جسام لها أخطر الأثر على العروبة
والإسلام فى ذلك الوقت ، فضلا عن حرصنا على إتاحة الفرصة لشتى القراء المتعطشين
لمعرفة الحقائق المملوكية والصليبية فى مهديهما.

والله سبحانه وتعالى هو الموفق .

نورالدين خليل

ربيع الأول ١٤٢٥هـ / إبريل ٢٠٠٥م



الفصل الأول

من هم الممالئك ؟

- | | | |
|---|---|--|
| ١ | - | ماذا نعرف عن المماليك ؟ |
| ٢ | - | نشأة المماليك |
| ٣ | - | العبيد فى مختلف الحضارات |
| ٤ | - | الإمام العزّز الدين عبد العزيز بن عبد السلام |
| ٥ | - | دولة المماليك |
| ٦ | - | المماليك البحرية |
| ٧ | - | المماليك البرجية |



١ - ماذا نعرف عن المماليك

"ويل للأموات من الأحياء". مقولة صادقة في كل زمان ومكان ، ونوازع الشر طاغية في الإنسان على نوازع الخير فيه من قديم الأزل ، إلا من رحم ربي . وإنك لتبذل جهدك ، وتسعى سعيك في العثور على ما يتناول المماليك وإنجازاتهم ، وتبحث عنهم وعن أخبارهم فيما يتاح لك من كتب ، فلا تكاد تعثر على مرآدك . وإنما تجد العوام يقطّبون ويعبسون إذا تصادف وأن جاء ذكر المماليك وكأن لعنة لحقت بهم .

وهناك من يصف بناء أهرامات فراعين مصر بأنه من أعمال السخرّة والعبودية ، وتتطلق ألسنة حداد تلعن هؤلاء الملوك والفراعين ، وتخترع القصص حول آلاف العمال الذين قضوا نحبهم تحت الشمس المحرقة ، وتهال اللعنات على جيروت الفراعنة من أجل بناء مقبرة يدفن فيها الملك . ويتناسى هؤلاء ما كان يكنّه قدماء المصريين من تبجيل وتعظيم لملوّكهم ودياناتهم ومعابدهم ؛ وبالمثل ، هناك من لا يعرف عن المماليك سوى أنهم عبيد ، وفي أيامنا هذه يأنف الكثير من ذكرهم ويزدرونهم ويتباكون على مصر أيام حكم المماليك . وتبلغ الأمور ذروة سخريتها عندما تسأل أحدهم عمّا يعرفه عن شجرة الدر مثلاً ، فيردد من فوره "القباقيب" ، إشارة إلى الوسيلة التي قُتِل بها زوجها عز الدين أيبك ، ضرباً "بالقباقيب" ، ولو سألته من هذا الذي قتلوه بالقباقيب وما اسمه ؟ أطرق صامتاً . وإن سألته عمّا يعرفه عن شجرة الدر بخلاف تلك "القباقيب" لا تحظى منه بسوى الصمت ، أو اللجاجة . هذا مثل من أمثلة عدة عمّا لحق بالمماليك من ظلم الجهالة والجهال . ولو سألته عمّن فتح "عكا" ، ينظر إليك في بلاهة خبيثة ثم يتكلّف الجدية ويتمم متلجلاً : عكّا .. نابليون ..

هذه مجرد أمثلة عما لحق بالمماليك من ظلم بيّن . وليس هناك من شك فى أن الشرق العربى الإسلامى فى حاجة ماسة لأن يعيد كتابة تاريخ هذه الفترة المملوكية الباهرة ، حتى تعود للأمة أمجادها الغابرة ، خاصة وأن أعداء الأمة الإسلامية سواء فى الشرق أو فى الغرب قد بدأوا ينهشونها فى شراسة بينما يرفعون شعارات جوفاء ومقولات عرجاء عن حريات لا يفهمونها، وخاصة حقوق الإنسان التى يتشذوق بها .

٢ - نشأة المماليك

تلقتهم الحياة عابسة ، ومدت إليهم يداً خشنه ، وشاعت أن تلطم طفولتهم ، فحرمتهم حنان الأم ودفء العائلة ، وأطلقت يد النخّاسين تختطفهم من ذويهم أو تلتقطهم بعد أن قضى العائل أو العائلة فى الحروب ، وتلقى بهم من تاجر إلى آخر ، ومن مكان إلى غيره . والوجوه البريئة الخائفة، تُجمع كالخراف ، تمضى نهارها وكأنها قطيع ، وقد غرس فيها الخوف طاعة عمياء ، وتلبية للأوامر خرساء ، إلى أن يغلبها النوم فتتقرش الأرض، ويتكور البعض على البعض .

وسرعان ما يعتاد الأطفال خشونة الحياة ويألفون جفائها ، وتمضى بهم الأيام سيرتها ، وبينما هم يشبّون عن الطوق يهدأ لهم وجه الحياة ، ويشغلهم أمروهم أو مآلكوهم فى الممران والنزال، والفروسية والقتال ، وإذا هم فوارسا وجنودا ، يعرفون أن سلطانا أو أميرا يملكهم وأن طاعة واجبة، وعصيانه نائبة ، فهو الذى يعولهم ويعلمهم ، وله الفضل فيما هم عليه من شتى النعم .

ويروى لنا التاريخ متى بدأت تلك النخاسة ، يخبرنا أنها بدأت فى القرن التاسع الميلادى ، عندما كان النخاسون يختطفون الأطفال من عائلاتهم ، أو يجمعون من قُتل أبائهم وذوهم فى الحروب ، وفى بعض الأحيان القليلة يتركهم الوالدان من إملاق ، إذا كان الفقر شديداً وبالحياة خصاصة وعَوَزٌ . وكان النخاسون يجمعون الأطفال من بلاد القوقاز أو التركستان أو غيرها كى يصبحوا جنوداً مملوكين لمن اشتراهم .

وكان أكثر السلاطين اقتناء للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) الذى وجد فى ذلك وسيلة ناجعة لحماية سلطنته فى حروبه مع الصليبيين وفى صراعه مع أبناء عمومته من الأيوبيين . وتشاء الأقدار أن تستهل زوجته شجرة الدر دولة المماليك وتتربع على عرش السلطنة فى مصر لتصبح أول سلاطين المماليك ، والمرأة الوحيدة التى جلست على عرش السلطة على مدى التاريخ الإسلامى كله ، ثم أفسحت الطريق للمماليك ليحكموا مصر وسوريا وينشئوا دولة المماليك .

كما يحدثنا التاريخ أن قصة المماليك بدأت فى بغداد فى عهد الخليفة العباسى المستعصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) وسرعان ما انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى . كما يروى لنا كيف تعلم المماليك انتزاع حقوقهم ورفاهيتهم اغتصاباً ، وكيف كانوا يستغلون ما مُنحوا من سلطة عسكرية وسياسية ليسيظروا على البلاد وعلى السلطات الشرعية ، إلى أن وقعت الخلافة نفسها بعد عهد المستعصم فى قبضة أمراء المماليك . على أن الخلافة ذاتها كانت باقية كرمز للسلطة الشرعية ، أما السلطة الفعلية فكانت فى أيدى أمراء المماليك ، تعززها كتائب مملوكية أُتقِنَ تدريبها وتعليمها فباتت تدين بالولاء لقادتها . وبحلول القرن الثالث عشر الميلادى بلغت قوة المماليك ذروتها وأحكموا قبضتهم على البلاد فى كل

من مصر وسوريا ، وكذلك الهند التى كان لابد للسلطان فيها من أن يكون بالضرورة من
المماليك أو من ورثتهم .



٣ - العبيد فى مختلف الحضارات

وعلى ذلك ، فالمماليك أناس يملكهم غيرهم ، وهى تسمية أخف وطأة من لفظ العبيد أو الأرقاء ، وهى مصطلحات لم يكن رجال الفكر يرون فيها إهانة أو ازدراء : ونثبت هنا مختلف الآراء حيال العبيد :

أرسطو: يرى ذلك الفيلسوف الكبير ، ذو العقل الجبار ، صاحب الأقوال الكبيرة الخطيرة ، أن البعض قد خلقوا للعبودية لأنهم يعملون كآلات ويديرهم المفكرون الأحرار .

أفلاطون: (وهو أستاذ أرسطو) نادى فى جمهوريته الفاضلة *Utopia* بحرمان العبيد من حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار سواء من أسيادهم أو الأسياد الغرباء .

الحضارة اليونانية: أباحت وشرعت نظام الرق فى شكله العام والخاص .

اليهودية: أباحت الرق الذى كان واسع الإنتشار فى العالم المعروف على وجه التقريب .

المسيحية: سارت على نهج اليهودية فأباحت الرق ولم تحرمه وأمرت العبيد بالطاعة لأسيادهم كما يطيعون المسيح . وجاء فى العهد الجديد من الكتاب المقدس :

"أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح"
(الرسالة إلى أهل افسس ٦ : ٥)

الإسلام: لكن الإسلام هو النظام الدينى الوحيد الذى لم يبح الرق ، وتنص شريعته على أن العتق كفارة للذنوب . وتنص قلبا وقالبا على الكثير من المنافذ التى

تؤدى إلى التخلص من هذه الظاهرة القديمة . وورد عتق الرقيق أو (تحرير الرقبة) فى القرآن الكريم فى أربع كفارات : القتل الخطأ ، واليمين الكاذب ، والظهار ، ثم تتوجب للسعى فى الحياة على إجمالها :

١- "ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة..." (النساء) (٤ : ٩٢)

٢- "لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذْكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ..."

(المائدة) (٥ : ٨٩)

٣- "والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل

أن يتماسا..." (المجادلة) (٥٨ : ٣)

٤- " فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام فى

يوم ذى مسغبة ... " (الشمس) (٩٠ : ١١ - ١٤)

على أننا نورد فيما يلى حادثة أوردها عبد الرحمن الشرقاوي فى كتابه "أئمة الفقه

التسعة" حدثت فى مصر مع المماليك ، أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تلقى مزيدا من

الضوء على نظرة المجتمع إلى المماليك قبل أن يعظم شأنهم ، وقبل سنوات قلائل من قيام

دولتهم .



٤ - الإمام العززالدين عبد العزيز بن عبد السلام

كان الإمام العززالدين بن عبد السلام قاضى القضاة فى دمشق، ليس هناك من هو أفقه منه فى زمانه . وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين وسلمهم مدينة صيدا وبعض المدن الأخرى فى فلسطين وقلعة الشقيف ، فقاومه الإمام عزالدين واعتلى المنبر وأعلن خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام ، وحرص الناس على خلع طاعته ، وانضم إليه الشيخ ابن الحاجب وأصدرا فتوى بخيانة السلطان وخلع طاعته . وانتهى الأمر بالإمام عزالدين إلى مغادرة دمشق وحل بمصر، حيث استقبله الملك الصالح نجم الدين أيوب وأكرم وفادته وعينه إماما وخطيبا لجامع عمرو . وسرعان ما عينه قاضيا للقضاة .

وما لبث الشيخ أن لاحظ أن أمراء مصر وقادة الجيش من المماليك الأرقاء اشتراهم السلطان صغارا وتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامى وليسوا أحرارا وليس لهم حقوق الأحرار ، ومن ثم ليس لهم أن يتزوجوا حرائر النساء ، ولا يحق لهم البيع والشراء والتصرف كالأحرار وإنما كما يتصرف العبيد .

وانزعج السلطان واضطربت الأمور مع المماليك ، فهجرت الزوجات فراش الزوجية ، وتراجع التجار عن صفقاتهم مع المماليك ، وراح الصبية ينادون أمراء المماليك فى الطرقات بالعبيد برغم الهيبة

والمنصب . ويورد السيوطى فى "حُسنُ المحاضرة" تلك الأوضاع
قائلا :

تصدى الشيخ عز الدين لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم
يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال
المسلمين ، فعظم الخطب عندهم والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا
شراء ولا نكاحا ، وتعطلت مصالحهم بذلك ، وكان من جملة نائب
السلطنة ، فاستثار غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال الشيخ : نعقد لكم
مجلسا وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين . فرفعوا الأمر إلى
السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم
يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ونحن ملوك
الأرض؟ والله لأضربنه بسيفى هذا. فركب بنفسه فى جماعته والسيف
مسلول فى يده ، فطرق الباب ، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب
السلطان ما رأى ، وشرح له الحال ، فما اكرث لذلك وقال : يا ولدى ،
أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله . ثم خرج فحين وقع بصره على
النائب ، ببست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى
وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدى إيش تعمل ؟ فقال الشيخ :
أنادى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعى . فسأل النائب : فيم
تصرف ثمننا ؟ فقال : فى مصالح المسلمين . فسأل النائب : ومن يقبضه ؟
فرد الشيخ : أنا .

وانصرف النائب وأخبر السلطان الذى رفض ذلك البيع . لكن الشيخ
أنكر تدخل السلطان فى القضاء ، وجمع أمتعته وأهل بيته ، ووضعهم على
حمير ، وعزم على الرحيل . ورافقته جموع حاشدة باكية متوعة ، وكاد
الأمر أن يصير إلى ثورة . وأسرع السلطان على فرسه وشق الجموع
الغاضبة وتلطف مع الشيخ قائلا : يا إمام ، لا تفارقنا . عُدْ ، واصنع ما
بدا لك .

وعاد الشيخ وسط تهليل الحشود ، وجمع السلطان المماليك وأمراء
القلعة وعرضوا فى مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى فى ثمنهم ، إلى أن
امتنع الحاضرون عن المزايدة ، فتقدم السلطان ودفع ثمنهم من ماله
الخاص واشترى جميع أمراء المالك وأعتقهم ، فأصبحوا أحراراً.

حدث ذلك قبل سنوات قلائل من قيام دولة المماليك ، وربما كانت تلك الحادثة من
العوامل التى جعلتهم يسارعون إلى اغتيال توران شاه وتنصيب شجرة الدر سلطانة (أم
خليل) عقب وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واغتيال ابنه ووريثه توران شاه،
وإن كانت هناك عوامل أخرى إلى جانب تلك الحادثة . ومن استقراء تاريخ المماليك من
اليسير أن نلاحظ أنه لم يكن هناك نظام موضوع أو عرف متبوع لتولى السلطنة فيما بينهم ،
وإنما كان الأقوى هو الذى يجلس على عرش السلطنة كما سنرى فى الصفحات التالية عند
الحديث عن قيام دولة المماليك .

٥ - دولة المماليك

مر بنا أن قصة المماليك كانت قد بدأت في بغداد في عهد الخليفة العباسي المستعصم (٨٣٣-٨٤٢م) وسرعان ما انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي . كما مر بنا كيف تعلم المماليك انتزاع السلطنة اغتصابا ، واستغلال ما كان بأيديهم من سلطة عسكرية للسيطرة على البلاد وعلى السلطات الشرعية . وبحلول القرن الثالث عشر الميلادي بلغت قوة المماليك ذروتها وأحكموا قبضتهم على كل من مصر وسوريا .

كما مر بنا أن شجرة الدر بدأت دولة المماليك بعد وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٥٠م وتربع على عرش السلطنة في مصر لتصبح أول سلاطين المماليك ، والمرأة الوحيدة التي جلست على عرش السلطنة على مدى التاريخ الإسلامي كله ، ثم أفسحت الطريق للمماليك ليحكموا مصر وسوريا وينشئوا دولة المماليك .

ولقد اعتاد المؤرخون على تقسيم التاريخ المملوكي إلى فترتين : يطلقون على ممالك الفترة الأولى المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢م) ، وعلى ممالك الفترة الثانية المماليك البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧م) . وليس هناك من سبب لهذه التسمية إلا أن المماليك البحرية كانوا يقيمون في جزيرة الروضة في نهر النيل (أو بحر النيل) ومن هنا جاءت التسمية ، وأما المماليك البرجية فكانوا يقيمون في برج القلعة بالقاهرة .

ولقد تواصلت دولة المماليك في مصر وسوريا لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، يحددها المؤرخون بفترة مقدارها ٢٦٧ سنة ، تعاقب عليها ما لا يقل عن ٤٥ سلطانا من المماليك ، وأفلح البعض منهم في إنشاء أسر حاكمة ، أشهرهم السلطان قلاوون الذي حكم في

الفترة من ١٢٧٩ إلى ١٢٩٠م ، وحكمت ذريته بفترة انقطاع حتى سنة ١٣٨٢م ، وتتابع من ذريته على حكم مصر أربعة عشر سلطانا . وبعد الإنتصار المملوكى على المغول فى معركة عين جالوت الشهيرة عام ١٢٦٠م بقيادة السلطان قطز ، استولى بيبرس الأول على السلطة ، وهو بحق المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، إذ نشط فى حروبه ضد بقايا الصليبيين ونجح فى القضاء عليهم فى فلسطين وسوريا ، وطارد المغول ، وحكم حتى عام ١٢٧٧م .

وتشاء الأقدار أن تبتسم الحياة للمماليك بعد عبوسها الأول ، وتجعل منهم قادة عظام تحققت على أيديهم أجل وأهم وأعظم إنجازات ذلك العصر ، من طرد الصليبيين تماما من الشرق ، إلى صدّ الإجتياح المغولى الذى لم يقف فى طريقه أي حاكم فى أي بقعة من أقاصى الشرق وحتى حدود مصر وفى داخل أوروبا ، أي القارة الآسيوية بكاملها على وجه التقريب وأجزاء من شرق أوربا واستحقوا بذلك جميل الأمة الإسلامية والعربية وعرفانها، بل والأمة الأوروبية كذلك . لقد أنقذ المماليك الحضارة الإسلامية والعربية من الدمار .

ليس هذا وحسب ، وإنما احيوا الخلافة التى قضى عليها المغول عام ١٢٥٨م ، ونصبوا خليفة تحت رعايتهم فى القاهرة ، وأصبحوا أوصياء على حكام المدينتين المقدستين ، مكة المكرمة والمدينة المنورة . ولم تكن انتصاراتهم العسكرية الباهرة لتتحقق لولا تشجيعهم وتقويتهم لإقتصاد بلادهم ، وتبنيهم للصناعات والحرف ، وكانوا حريصين على أن تبرز مصر كمركز للطريق التجارى الرئيسى وللتجارة العابرة بين الشرق وبلدان البحر المتوسط .

بيد أنه لكل بداية نهاية ، ولكل هدف غاية . ولكل شروق غروب ، إذ بدأت هذه الشعلة المملوكية المضيئة تخبو شيئاً فشيئاً بعد وفاة الملك الناصر (١٢٩٣ - ١٣٤١ م) ، ولم يجد المماليك من يخلف الملك الناصر في قوته وعظمته ، وسرعان ما انطفأت تلك الشعلة المملوكية وذهب ضوؤها عام ١٥١٧م عندما هزم السلطان سليم الأول العثماني السلطان المملوكي طومان باي الثاني في معركة الريدانية القريبة من القاهرة ، وبعد أن هزمهم أيضاً في معركة مرج دابق شمالى حلب عام ١٥١٦م . وهكذا انتهت دولة المماليك كقوة عسكرية وسياسية . وبدأ عهد الإمبراطورية العثمانية في الأراضي التي كانت تدين للمماليك سواء في مصر أو في الشام .

أما بقايا المماليك من الأمراء الأقل شأنًا وعائلاتهم وذويهم ، فقد سارت بهم الحياة سيرتها ، يعيشون في مصر بلا فعالية حقيقية ، لا يكاد يرد لهم ذكر في صفحات التاريخ ، حتى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما هبط نابليون في مصر ، وظن بقايا المماليك أنهم قادرون على التصدي له . والمعروف أنه بعد رحيل الحملة الفرنسية من مصر، تولى محمد على باشا حكم مصر . وهكذا عاودت الحياة عبوسها ، كما فعلت بادئ الأمر، ففضى عليهم محمد على باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٨ م) في مذبحة القلعة الشهيرة .



٦ - المماليك البحرية

فترة السلطنة

سلاطين المماليك البحرية

- ٠١- شجرة الدر (سلطنة) ١٢٥٠م
- ٠٢- أيبك (المعز عز الدين) ١٢٥٠-١٢٥٧م
- ٠٣- على بن أيبك (المنصور نور الدين) ١٢٥٧-١٢٥٩م
- ٠٤- قطز (المظفر سيف الدين) ١٢٥٩-١٢٦٠م
- ٠٥- بيبرس الأول البندقداري (الظاهر ركن الدين) ١٢٦٠-٢٧٧ .
- ٠٦- بركة خان (السعيد بن الظاهر بيبرس) ١٢٧٧-١٢٧٩م
- ٠٧- سلامش (العادل بدر الدين بن الظاهر بيبرس) ١٢٧٩م
- ٠٨- قلاوون (المنصور سيف الدين) ١٢٧٩-١٢٩٠م
- ٠٩- خليل (الأشرف صلاح الدين بن قلاوون) ١٢٩٠-١٢٩٣م
- ١٠- الناصر محمد (بن قلاوون) ١٢٩٣-١٢٩٤م
- ١١- العادل كتبغا (العادل زين الدين) ١٢٩٤-١٢٩٦م
- ١٢- المنصور لاجين (المنصور حسام الدين لاجين) ١٢٩٦-١٢٩٩م
- الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثانية) ١٢٩٩-١٣٠٩م
- ١٣- بيبرس الثاني الجاشكير (المظفر ركن الدين) ١٣٠٩-١٣١٠م

- الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثالثة) ١٣١٠ - ١٣٤١ م
- ١٤- أبوبكر بن الناصر محمد (المنصور سيف الدين) ١٣٤١ م
- ١٥- كوجك بن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين) ١٣٤١ - ١٣٤٢ م
- ١٦- أحمد بن الناصر محمد (الناصر شهاب الدين) ١٣٤٢ م
- ١٧- إسماعيل بن الناصر محمد (الصالح عماد الدين) ١٣٤٢ - ١٣٤٥ م
- ١٨- شعبان الأول بن الناصر محمد (الكامل سيف الدين) ١٣٤٥ - ١٣٤٦ م
- ١٩- حاجي الأول بن الناصر محمد ١٣٤٦ - ١٣٤٧ م
- ٢٠- الحسن بن الناصر محمد (الناصر) ١٣٤٧ - ١٣٥١ م
- ٢١- صالح بن الناصر محمد (الصالح صلاح الدين) ١٣٥١ - ١٣٥٤ م
- الحسن بن الناصر محمد (الناصر) (مرة ثانية) ١٣٥٤ - ١٣٦١ م
- ٢٢- محمد بن حاجي (المنصور صلاح الدين) ١٣٦١ - ١٣٦٣ م
- ٢٣- شعبان الثانى (الأشرف ناصر الدين) ١٣٦٣ - ١٣٧٧ م
- ٢٤- على بن شعبان (المنصور علاء الدين) ١٣٧٧ - ١٣٨١ م
- ٢٥- حاجي الثانى (الصالح صلاح الدين) ١٣٨١ - ١٣٨٢ م



٧ - الممالك البرجية

سلطين الممالك البرجية	فترة السلطنة
-----------------------	--------------

- ٢٦- برقوق (الظاهر سيف الدين) ١٣٨٢-١٣٩٨ م
- ٢٧- فرج بن برقوق (الناصر) ١٣٩٨-١٤٠٥ م
- ٢٨- عبد العزيز بن برقوق ١٤٠٥ م
- فرج بن برقوق (مرة ثانية) ١٤٠٥-١٤١٢ م
- ٢٩- الشيخ المحمودى (المؤيد أبو النصر) ١٤١٢-١٤٢١ م
- ٣٠- أحمد بن شيخ (المضفر) ١٤٢١ م
- ٣١- الظاهر ططر ١٤٢١ م
- ٣٢- محمد بن ططر (الصالح) ١٤٢١-١٤٢٢ م
- ٣٣- برسباى (الأشرف سيف الدين) ١٤٢٢-١٤٣٨ م
- ٣٤- يوسف بن برسباى (العزیز جمال الدين) ١٤٣٨ م
- ٣٥- جقمق (الظاهر سيف الدين) ١٤٣٨-١٤٥٣ م
- ٣٦- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين) ١٤٥٣ م
- ٣٧- اينال العلانى (الأشرف سيف الدين) ١٤٥٣-١٤٦٠ م
- ٣٨- أحمد بن اينال (المؤيد شهاب الدين) ١٤٦٠-١٤٦١ م

- ٣٩- خشقدم (الظاهر سيف الدين) ١٤٦١-١٤٦٧م
- ٤٠- بلباي المؤيدى (الظاهر سيف الدين) ١٤٦٧-١٤٦٨م
- ٤١- تمرىغا (الظاهر) ١٤٦٨م
- ٤٢- قايتباي (الأشرف سيف الدين) ١٤٦٨-١٤٩٥م
- ٤٣- محمد بن قايتباي (الناصر) ١٤٩٥-١٤٩٦م
- ٤٤- قانصوه (الظاهر) ١٤٩٧م
- محمد بن قايتباي (ثانى مرة) ١٤٩٧-١٤٩٨م
- ٤٥- قانصوه (الأشرفى) ١٤٩٨-١٥٠٠م
- ٤٦- جنبلاط (الأشرف) ١٥٠٠-١٥٠١م
- ٤٧- ظومان باي الأول (العادل) ١٥٠١م
- ٤٨- قانصوه الغورى ١٥٠١-١٥١٦م
- ٤٩- طومان باي الثانى (الأشرف) ١٥١٧م



الفصل الثانى

عَصْرُ الْمَمَالِكِ

خلفية تاريخية

- أولا - مقدمة
- ثانيا - الحملات الصليبية
- ثالثا - الإجتياح المغولى
- رابعا - التحالف الصليبي المغولى



أولا : مقدمة

بدأ عصر المماليك سنة ١٢٥٠م . وكانت الحملات الصليبية قد تمكنت من إنشاء ممالكها وإماراتها بادئ الأمر فى سنة ١٠٩٩م ، أى أن دولة المماليك بدأت بعد مضى حوالى ١٥٠ سنة تقريبا من بداية إنشاء الممالك الصليبية ، وخلال تلك الفترة تطورت الأوضاع وتغيرت وتبدلت .

وتزامن بدء التحرك المغولى من شرق آسيا مع بداية العصر المملوكى . ففى سنة ١٢٠٦م تقريبا كان المغول قد انطلقوا غربا . وفى ١٢٥٨م دخل المغول بغداد وخربوها ، ودخلوا دمشق بعد ذلك بعامين أى فى ١٢٦٠م . ومعنى ذلك أنه كان على دولة المماليك أن تتصدى لعديدين شرسين : بقايا الصليبيين فى استماتتهم لإسترجاع ما فقدوه بعد أن هزمهم صلاح الدين الأيوبي فى معركة حطين ، والمغول بجحافلهم الجرارة إلى قلب العالم الإسلامى .

وكانت بداية نهاية الوجود الصليبي فى الشرق قد بدأت بانتصار صلاح الدين الأيوبي فى معركة حطين الفاصلة سنة ١١٨٧م ، وبعد حوالى ٦٣ سنة من تلك المعركة بدأت دولة المماليك ، أى بعد جيل واحد على وجه التقريب . ويعلم المطلعون على التاريخ وصروفه أن هذا الجيل شهد صراعات وخلافات الأسرة الحاكمة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ، مما ورد تفصيله فى الكتاب الأول (شجرة الدر ، قاهرة الملوك ومنقذة مصر) .

وعلى ذلك فإن الخلفية التاريخية لدولة المماليك عموما وخاصة فى بداية نشأتها ، تكاد تكون واحدة : الصليبيين ، والمغول ، والتحالف الصليبي المغولى . أما الخلفية التاريخية لكل

من سلاطين المماليك الذين تتناولهم هذه السلسلة ، فتختلف فى تفصيلاتها اختلافا تتأرجح شدته ونوعيته .

وتكاد الخلفية التاريخية فى هذا الكتاب أن تقتصر على المغول فقط ، إذ كانت فترة حكم السلطان العظيم سيف الدين قطز أقل من سنة واحدة ، حقق فيها المعجزة التى أنقذت العالم الإسلامى ، بل العالم المعمور آنذك . ولا نتردد فى التتويه بأن ذلك آية من الآيات ، ومعجزة من المعجزات . وصدق الله العظيم : "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله" .

ثانيا : الحملات الصليبية

نحرص كل الحرص على التذكير بالحملات الصليبية ، كيف نشأت ، ومن الذى أطلقها ، وأسبابها ، وتطورها على مدى ما يزيد على قرنين من الزمان .

وقد يتساءل البعض ، لِمَ كل هذا الحرص ؟ فالحملات الصليبية مضت وأصبحت فى طى النسيان ، وهى الآن مجرد تاريخ مضى عليه ما يقرب من ألف سنة ، أما الآن ، فقد شب العقل الإنسانى عن الطوق ، فضلا عما قد يثيره ذكرها وتجديد أحداثها من بعث لروح العداوة والفتنة افى هذا القرن الحادى والعشرين الذى بات العالم فيه قرية واحدة ، وحلت العولمة بين ظهرانينا كى تقرب لا أن تبعد ، وتوحد لا أن تفرق ، وأصبحت الحضارة فى ريعان شبابها ، ينتفع بها القاصى والدانى فى مشارق الأرض ومغاربها ، بعد هذه الثورة العظيمة فى سبل التواصل !

ولا نجد ما نصف به هؤلاء سوى صفة واحدة من صفتين : السذاجة الجاهلة أو الخيانة المقتّعة .

ذلك أن الغرب الصليبي عاد سافرا في هذا القرن العشرين يجابه عدوه التاريخي بعدما فرغ من عدوه الثانوي ، الشيوعية ، متمثلة في الإتحاد السوفياتي السابق . واستدار إلى عدوه الرئيسي ألا وهو الإسلام ، وها هو قد تمكن من السيطرة على العالم الإسلامي كله أو جلّه . فبدأ بالتآمر على الخلافة الإسلامية ، وجنّد كمال أتاتورك ، وهو من يهود الدونمة - الأمر الذي يجهله سواد العرب والمسلمين - واتفق معه سرا في لوزان على الإطاحة بالخلافة الإسلامية ، وأفلح أتاتورك في مهمته سنة ١٩٢٦م في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ثم تبنى الغرب الصليبي سياسة فرق تسد ، فمزق الإمبراطورية العثمانية إلى دول مستقلة ، ثم شرع في زرع أعداء الإسلام في فلسطين بعد أن منحت انجلترا اليهود وعد بلفور الشهير ، وبعد أن يسّرت هجرة اليهود إلى فلسطين ، وأمدتهم بالمال والسلاح ليقتلوا أصحاب البلد ، بينما سارع إلى مجلس الأمن ليضفي الشرعية على قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٧م .

وليس هذا مجال الحديث عن الصليبية الجديدة ، وإنما نختم هذه العجالة بالتذكير بما قاله الرئيس الأمريكي جورج بوش من أن الرب كلّفه القيام بالحملة الصليبية ، وأنه عاقد العزم على إنجازها ، فأرسل أحدث أسلحته واحتل العراق كي يتحقق ملْك سليمان ، بعد أن أوهم العالم بأن العراق يمتلك أسلحة نووية تستطيع بها تدمير الغرب في غضون خمس وأربعين دقيقة .

ولنعد إلى أصل الحملات الصليبية ، كي نعلم أن العالم العربى الإسلامى مهدد تحوطه الأخطار .

فى عام ١٠٩٥م وقف البابا إيربان الثانى فى مدينة كليرمونت الفرنسية أمام جموع وحشود تنتظر خطابه الذى أذيع أن سيكون له أهمية بالغة ، وإذا به يطلق صيحته الشهيرة التى دعا فيها إلى حمل الصليب والتوجه شرقا لتحرير الأرض المقدسة وقبر المسيح من أيدي الكفرة المسلمين ومناصرة مسيحيي الشرق فى العالم المسيحي الأرثوذكسى ، واعداء من يأخذ الصليب ، أي يضع صورته على ملابسه ويخرج، بالغفران من الخطايا .



خطاب البابا إيربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت

يا شعب الفرنجة ! شعب الله المحبوب المختار ! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرانق ، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافرين فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من تقع تبعة الإنتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم — أنتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟

ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم ، أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم — فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا .

الضريح الذى تملكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست — لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من

شؤون أسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم . إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباحج إن المدينة العظيمة القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السموات .

(قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥ - ١٦)

(الترجمة العربية بقلم محمد بدران)

واشتعلت الجموع حماسا وحمية ، وراحت تردد فى صياح صاخب: "الرب يشاؤها ... الرب يشاؤها" . وعلى الفور انطلقت الحشود ، سواء من الفقراء المعدمين المتلهفين إلى أرض اللبن والعسل ، أو أمراء الإقطاعيين المفلسين الذين حرّمهم نظام توريث الإبن الأكبر

من اقتناء الإقطاعيات ، ولاحقا الملوك والأباطرة الذين خرجوا بجيوشهم ، طوعا أو كرها ، انصياعا لأوامر الباباوات أو إشباعا لأطماع خاصة ، أو تشفيا لأحقاد دفينّة .

وأفلحت الحملات الصليبيّة بادئ الأمر، وقامت في الشرق بضع ممالك وإمارات صليبيّة : في الرها ، والقدس ، وطرابلس ، وعكا وأنطاكية ؛ ويعزو مؤرخون غربيون منصفون ، وهم قلة ، نجاح تلك الحملات إلى عاملين اثنين لا ثالث لهما : تفرّق العرب والخيانة . ودامت الحروب الصليبيّة طوال ما يقرب من ثلاثة قرون إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي ، كما مر بنا ، ليتوج جهود من سبقوه من قادة المسلمين الذين مهدوا له طريق توحيد العالم العربي الإسلامي ، فقضى في الواقع على الوجود الصليبي في الشرق بانتصاره في معركة حطين سنة ١١٨٧م ، وتوارث أبناؤه الإمبراطورية الأيوبية الشاسعة وكان آخرهم نجم الدين أيوب ، زوج شجرة الدر.

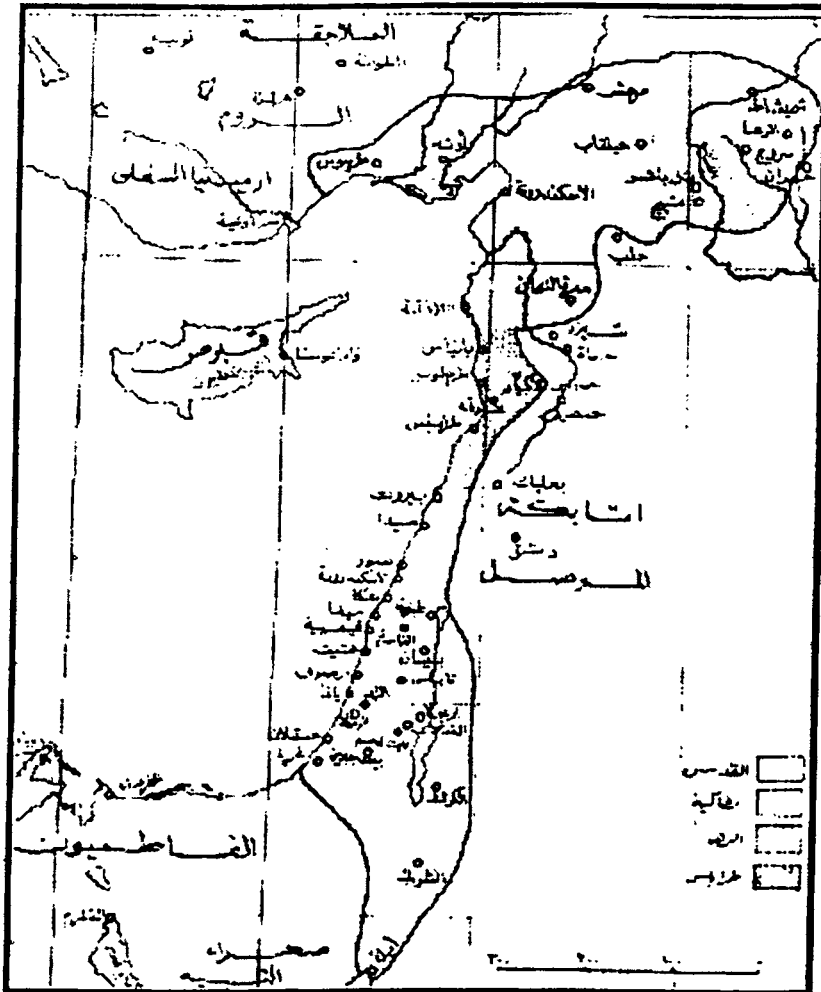
وأمضى نجم الدين أيوب جُلّ حياته محاربا للصليبيين، كما شغلته خلافات أبناء عمومته من الأيوبيين ، لكنه استعاد القدس التي كانت قد ضاعت بالمفاوضات بتسليمها للصليبيين . وكانت الهزائم التي ألحقها بالحملة الصليبيّة السادسة قد أثارت لويس التاسع ملك فرنسا ودفعته إلى إعداد العدة والذهاب بجيوشه إلى الشرق فيما يعرف بالحملة الصليبيّة السابعة ، التي ترد تفصيلاتها في الكتاب الأول من هذه السلسلة (شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر).



الحملات الصليبية : تواريخها وأسمائها ونتائجها

التاريخ / إسم الحملة الصليبية	النتائج
١٠٩٦م حملة الشعب	دمرها الأتراك فى آسيا الصغرى
١٠٩٦م ٣ حملات صليبية ألمانية	مذابح اليهود دمرها المجرىون
١٠٩٦م <u>الحملة الصليبية الأولى</u>	إمارة الرها ومملكة القدس
١١٠٠م الحملة اللومباردية	دمرها قلع أرسلان
١١٠١م الحملة النفرسية	دمرها قلع أرسلان وملك غازى
١١٠١م الحملة الأكيثانية	دمرها قلع أرسلان وملك غازى
١١٤٧م <u>الحملة الصليبية الثانية</u>	حصار دمشق
١١٨٩م <u>الحملة الصليبية الثالثة</u>	حتلال قبرص وعكا
١٢٠١م <u>الحملة الصليبية الرابعة</u>	نهب القسطنطينية وإنشاء كنيسوامبراطورية
<u>الضالة (ضدالمسيحيين)</u>	لاتينية فيها
١٢١٧م <u>الحملة الصليبية الخامسة</u>	استعادة الصليب
١٢٢٨م <u>الحملة الصليبية السادسة</u>	استعادة أورشليم سلميا
١٢٤٨م <u>الحملة الصليبية السابعة</u>	أسر لويس التاسع فى المنصورة
١٢٧٠م <u>الحملة الصليبية الثامنة</u>	موت لويس التاسع أمام تونس





الملك والإمارات الصليبية

ثالثا - الإجتياح المغولى

ظهر فى القرن الثالث عشر خطر آخر تهدد العالم الإسلامى بخلاف خطر الحملات الصليبية ، قادمًا هذه المرة من الشرق من وراء النهر وأقاصى آسيا ، ألا وهو الخطر المغولى بقيادة جنكيزخان الرهيب الذى كان قد قهر الصين بالفعل ، وانطلق غربا يحرق ويدمر ولا يقف فى طريقه شئ . وفى سنة ١٢٢٠م استولى المغول على سمرقند وبخارى ، وفى منتصف القرن كانوا قد استولوا على روسيا ووسط أوروبا وشمال إيران والقوقاز، وفى ١٢٥٨م غزوا عاصمة الخلافة العباسية بغداد بقيادة هولاكو وأنهوا بقايا الإمبراطورية العباسية التى كانت فى أوج عظمتها فى وقت من الأوقات .

وأسفر الإجتياح المغولى عن اضمحلال الشرق العربى الإسلامى اضمحلالا شديدا . ذلك أن المغول فى اجتياحهم هذا قتلوا أعدادا غفيرة من الدارسين والعلماء ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال لاتعوض ، ونتيجة لذلك انمحى الكثير من التراث الثقافى والعلمى والتكنولوجى الذى لا يقدر بثمن مما كان يحتفظ به الدارسون المسلمون ويضيفون إليه طوال ما يقرب من خمسمائة سنة .

وانطلق المغول من العراق غربا إلى داخل سوريا ثم يمموا وجههم شطر مصر . وللمرة الأولى يجابه المغول عدوا يرفض الخضوع لقوتهم الهائلة ، ألا وهم المماليك الذين تصدوا للمغول بقوتهم العسكرية والمعنوية الجبارة . ولأول مرة يتجرع المغول كأس الهزيمة فى معركة مفتوحة عام ١٢٦٠م ، واستطاع المماليك تعبئة قواتهم فى الوقت المناسب ، وساروا شرقا حيث درات رحى معركة عين جالوت الشهيرة بالقرب من الناصرة بفلسطين واجتثوا شأفة المغول .

وكباقي الشعوب التي وصلها الإسلام أو وصلت إليه ، دخل المغول فى الإسلام جماعات وزرافاتا . وفى باكورة القرن الرابع عشر أعلن غازان خان محمود أن الإسلام دين الدولة ، وظلل الإسلام الجزء الشرقى من الإمبراطورية المغولية ، وراح المغول يبنون المساجد والمدارس ويرسلون البعثات الدراسية بكافة أنواعها .

رابعاً - التحالف الصليبي المغولى

لم يكن العقد الخامس من القرن الثالث عشر عقداً طبيعياً للعرب والمسلمين، إذ كانت الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ترزح تحت ضربات كل من المغول والصليبيين . ولم يدخر الصليبيون جهداً بعد هزيمتهم المشينة التى ألحقها بهم صلاح الدين فى معركة حطين عام ١١٨٧م كما تقدم ، بل تمكنوا فى الواقع من استعادة أغلب ما فقدوه أثناء حكم أولاده وأحفاده . إذ دب الخلاف بين سلاطين الأيوبيين ونشط الأخ يحارب أخاه ، وشمر العم يحارب ابن أخيه ، ويدعو سلطان منهم إلى الجهاد لمحاربة ابن عمه ، وهكذا استحالَت الأسرة الأيوبية إلى أعداء يحارب بعضهم بعضاً ، حتى وصل الأمر بالسلطان الكامل ابن أختى صلاح الدين إلى إعادة القدس إلى الصليبيين دون قتال كي يساعده فى حربه مع أخوته .

ولم يكن هناك سوى بصيص أمل للمسلمين انبعث من القاهرة . ذلك أن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، الذى يعتبره المؤرخون أفضل ملك فى الأسرة الحاكمة الأيوبية ، كان فى حركة لا تهدأ ، يقود جيوشه لمحاربة الصليبيين . وفى ١٢٤٤م خاض معركة

حاسمة استعاد على أثرها القدس وعسقلان وأعاد توحيد سوريا مع مملكته . وكان لانتصاراته أثرها في أوروبا التي أدركت أن الطريق الى القدس يمر بالقاهرة ، ومن ثم ، واستجابة للنداء الذي أطلقه مجمع ليون الكنسى سنة ١٢٤٨م ، خرج الملك لويس التاسع الفرنسى فيما يعرف بالحملة الصليبية السابعة بتنسيق كامل مع البابا اينوسنت الرابع .

وفى واقع الأمر، لم تكن حملة لويس التاسع تستهدف إستعادة القدس والقضاء على مصر باعتبارها القاعدة العسكرية الرئيسية والمصدر الرئيسى للقوة البشرية وحسب، وإنما كانت تستهدف كذلك إنشاء تحالف مع المغول للإحاطة بالعالم الإسلامى من الشرق والغرب كما سوف يتضح من الصفحات التالية .





جنگیز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية

الفصل الثالث

جنكيز خان

حضارة الجلادين

- ١- إعتذار للحضارة
- ٢- جنكيز خان
- ٣- جنكيز خان يبدأ الإمبراطورية
- ٤- توسيع الإمبراطورية
- ٥- محمد شاه الخوارزمي
- ٦- هزيمة محمد شاه الخوارزمي
- ٧- جلال الدين بن محمد شاه الخوارزمي
- ٨- المغول في إيران وجورجيا
- ٩- موت جنكيز خان



١ - إعتذار للحضارة

من غير اللائق أن يقترن لفظ الحضارة بلفظ الجلادين ، فحق علينا أن نبدأ بهذا الإعتذار لكلمة الحضارة ومفهومها جميعا .

فالحضارة كما جاء تعريفها بالمعاجم هي :

"حالة مثالية للثقافة الإنسانية تخلو تماما من البربرية والسلوك غير الرشيد ، وتستخدم على نحو أمثل الموارد الإنسانية والروحانية والثقافية والبدنية ، وتسعى إلى كامل تكيف الفرد في الإطار الإجتماعي ."

وفى تعريف آخرهى : "صنع المتحضر أو صيرورته ؛ وهى حالة يتم الوصول إليها فى هذه العملية ؛ وهى مرحلة ، خاصة مرحلة متقدمة ، فى التطور الإجتماعى . وهى كذلك لفظ يقصد به الدول المتحضرة" .

وعلى ذلك فالحضارة بعيدة كل البعد عن الجلادين وما يتعلق بهم . وقد يتساءل البعض: لماذا إذن هذا الإقتران ، حضارة الجلادين ، وكان الأحرى وضع الصفة المناسبة بجوار كلمة الجلادين ، مثلا وحشية الجلادين ، أو شراسة الجلادين ، أو ما إلى ذلك من صفات .

بيد أن القارئ سوف يرى فى هذا الكتاب كيف كانت عاصمة الجلادين تستقبل السفارات والمبعوثين من كافة دول العالم ، سفراء الملك لويس التاسع الفرنسى ، وسفراء بابا روما ، بل كانت تستقبل الأمراء والملوك ، هيثوم ملك أرمينيا ، وبدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وغيرهم كثير. وكلهم جاءوا لتقديم فروض الولاء والطاعة للجلادين ، جاءوا

للإستسلام محملين بالهدايا وعروض التحالف وتقديم التسهيلات بعدما اجتاحت الجلاذون أغلب العالم المعروف آنذاك .

ولا يقتصر الإعتذار للحضارة على جلاذى القرن الثالث عشر وحسب ، وإنما يمتد الإعتذار للحضارة ليشمل جلاذى القرن العشرين أيضا . فعندما دخل المغول بغداد ، دخلوها بالسيوف والرماح ، أما الذين دخلوها فى القرن العشرين فقد أمطروها بآلاف الأطنان من القنابل المدمرة ، ويكاد تخريب الحضارة الإسلامية فى بغداد القرن الثالث عشر يتضاءل خجلا أمام تخريبها فى القرن العشرين بوساطة قنابل أبناء العم سام ، الذين راحوا ينسفون الجسور ، ووزارات الخدمات وما إلى ذلك من البنية الأساسية، فتنهار المنازل على ساكنيها، بل وتصل القنابل إلى المخابى تحت الأرض فتقضى على النساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، كما شاهد أبناء هذا القرن على شاشات التلفزة فى مشارق الأرض ومغاربها .

والحضارة تائهة حائرة ، بين جلاذى الأمس وجلاذى اليوم . وجلاذو الأمس من المغول لم تكن الحضارة تعنيهم ، لم يفهموا معنى الحضارة ، أما جلاذو اليوم أبناء العم سام فهم يقتلون بإسم الحضارة والحرية والديمقراطية .

ويبدو أن جلاذى اليوم الأمريكيين قد رضعوا البربرية وشبّوا فى مهد التوحش وتمرغوا فى بحبوحة القسوة منذ أن وطأت أقدام أجدادهم الأرض الأمريكية ذاتها حينما اكتُشِفَت .

وفى عجالة سريعة نلقى نظرة على تطورات أصحاب تلك الغابسة المتوحشة :

✱ فأول البربريات الأمريكية ذبح الهنود الحمر، أصحاب البلد الأصليين .

✱ وثانى البربريات الأمريكية قتل مئات الآلاف من العمال المدنيين فى مدينة كروب الصناعية فى ألمانيا النازية وهم نائمون فى مدينتهم السكنية . وكما قال ألفريد كروب نفسه (وهو سليل عائلة كروب صاحبة المصانع) فى مذكراته فى هذه المناسبة : "إن مجرم الحرب لا بد أن يكون مهزوما ليصبح مجرم حرب " .

✱ وثالث البربريات الأمريكية ضرب مدينتى هيروشما ونجازاكي بالقنابل الذرية ، وتدمير كل شئ حىّ فيهما ، ويكفى الأمريكيين فخرا أنهم الشعب الوحيد الذى انفراد باستخدام السلاح الذري ، أو سلاح الدمار الشامل ، كما يحلو لهم هم أن يطلقوا عليه .

✱ ورابع البربريات الأمريكية قتل آلاف الأبرياء فى فييتنام .

✱ وخامس البربريات الأمريكية آلاف أطنان القنابل ، أسقطها الوالد بوش على بغداد .

✱ وسادس البربريات الأمريكية آلاف أطنان القنابل ، أسقطها الولد بوش على بغداد .

✱ وقائمة البربريات طويلة لا مجال للإسهاب فيها الآن فى هذه الصفحات .

كان ضروريا الاعتذار للحضارة .





جنگیز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية

٢ - جنكيز خان

فى سنة ١١٦٧م ، أى قبل عشرين سنة من استعادة صلاح الدين الأيوبي لمدينة القدس، وفى مكان قصى على نهر أونون فى شمال شرقى آسيا ، رزق زعيم مغولى يدعى بيزوغاي ، وزوجته هويلون بطفل أسمياه تيموجين ، ولكنه يعرف تاريخيا باسمه الآخر جنكيز خان . وكان المغول مجموعة من القبائل تعيش على ضفاف نهر أمور الأعلى وفى حرب مستمرة مع جيرانهم التتار الشرقيين .

وأفلح بيزوغاي ، والد تيموجين - جنكيز خان - فى اكتساب محبة أغلب قبائل المغول واستمالتهم . وفى سنة ١١٧٠م ، وقبل أن يجعل من نفسه خان المغول الأكبر، مات من أثر السم الذي دسّه فى طعامه أحد التتاريين الرحل أثناء تناوله العشاء معهم . وكان أكبر أبنائه ، تيموجين ، فى التاسعة من عمره آنذاك .

وتمكنت أرملة بيزوغاي النشطة ، هويلون ، من ضمان بعض السلطة للزعيم الصغير تيموجين على قبائل أبيه . وهكذا بدا زعيما وهو ما يزال صغيرا ، وكان متحجرا القلب وفيه غلظة إزاء أنداده وفيما بين أفراد أسرته . وسرعان ما شب عن الطوق ودخل فى حروب انتزع بها سيطرته على المغول ، وحدث أن قبيلة تايشيوت أوقعتة فى الأسر لفترة ، كما أسر الأتراك المركيت زوجته بورك التى تزوجها وهو فى السابعة عشرة من عمره . وفى نحو عام ١١٩٤م انتخب تيموجين ملكا أو خانا للمغول جميعا ، واتخذ اسم جنكيز ، أى القوي . وبعد ذلك مباشرة اعترف الإمبراطور الصينى بجنكيز أميرا أعظم للمغول وضمن تحالفه ضد التتار الذين كانوا يهددون الصين . ودارت حروب سريعة أسفرت عن خضوع التتار لحكم جنكيز خان .

وفى عام ١٩٩٩م ضم جنكيز خان قواته إلى قوات طغرل خان زعيم الكيرات لمحاربة أتراك التايمان ، والآن بات طغرل أعظم عواهل السهوب الشرقية الفسيحة ، وكان لقبه (وانج - خان أونج - خان) ، وقد تسرب هذا اللقب إلى غربي آسيا متحولاً إلى "يوهانس Johannes" ، وهو لقب أكثر ألفة ورخامة ، وبذا جعله مرشحاً للقيام بدور القسيس جون ، أو جون المشيخي Prester John ، وهو الملك والقس المسيحي الذي تقول الأسطورة إنه حكم فى الشرق الأقصى وإثيوبيا . على أن طغرل كان رجلاً خؤونا متعطشاً للدماء يفتقر تماماً إلى الفضائل المسيحية ، ولم يستطع قط مساعدة رفاقه المسيحيين . وفى سنة ١٢٠٣م تشاجر مع جنكيز خان ، وهزم فى أحد المعارك هزيمة ماحقه وقتل طغرل أثناء فراره ، واستسلم أفراد أسرته ، وضم جنكيز خان البلاد كلها .

وفى عام ١٢٠٤م دارت حروب لمدة عامين انتهت بترسيخ مكانه جنكيز خان كسيد أعلى على جميع القبائل فى المناطق الممتدة بين حوض تاريم ونهر أمور وسور الصين العظيم . وفى ١٢٠٦م انعقد (كورتلاي) أو مؤتمر عام لجميع القبائل الخاضعة له ، وأكد لقبه الملكى ، وأعلن أن شعبه ينبغى أن يُعرف بإسم المغول .



٣ - جنكيز خان يبدأ الإمبراطورية

لم يتدخل جنكيز خان فى نظام القبائل التى يحكمها ويتوارثها رؤساؤها . وإنما فرض سيادة عائلته ، ألتين أوروک ، أو العشيرة الذهبية ، على القبائل الأخرى بعدما أقام حكومة مركزية تسيطر عليها عائلته الكبيرة ورفاقه المحيطون به . ووهب العشائر أعدادا كبيرة من العبيد الذين استرقهم من القبائل التى قاومته وهزمها ، كما منح أصدقاءه ألوف العبيد .

وفى المؤتمر (كورتلاي) الذى انعقد سنة ١٢٠٦م ، حصلت كل من أمه هويلون وأخيه تيموغ أوتبشين على عشرة آلاف أسرة من العبيد ، ولكل من أبنائه الصغار خمسة أو ستة آلاف أسرة . أما القبائل ، وحتى المدن ، التى استسلمت له طواعية ، فتركت وشأنها دون تدخل طالما احترمت القوانين المهيمنة ، ودفعت الضرائب الإتاوات الباهظة .

وأصدر مجموعة من القوانين (ياسا) تكون فوق كل القوانين المألوفة فى السهوب والسهول ، وقد صدرت تلك القوانين على مراحل طوال فترة حكمه ، وتحددت فيها حقوق ومزايا رؤساء القبائل ، وشروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات الواجبة للخان ، ومبادئ فرض الضرائب ، وكذلك مبادئ القوانين الجنائية والمدنية والتجارية .

وبعد أن وضع جنكيز خان نظام امبراطوريته ، شرع فى توسيعها . فلدیه الآن جيش كبير اهتم بتنظيمه اهتماما كبيرا . فهناك الخدمة العسكرية الإجبارية على جميع أفراد القبائل الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين ، وذلك طبقا للتقاليد المغولية والتركية . وقد جُبل رجال القبائل على الطاعة العمياء ، ويعلم زعماء القبائل من التجربة المريرة

أن عليهم إطاعة الخان . ولأنهم من القبائل الرحل ، كان الزعماء يتطلعون إلى اجتياز
الآفاق .

كان جيشا من الخيالة والرماة وحملة الرماح على ظهور الجياد السريعة والعسكر .
رجال اعتادوا على خشونة العيش وعلى الترحال عبر الصحارى بمقادير قليلة من الطعام
والشراب . ولم يكن معروفا من قبل أن تلتقى سرعة الحركة مع النظام ومع الأعداد الغفير .





فارس مغولی

٤ - توسيع الإمبراطورية

كانت هناك ثلاث دول كبرى تحيط بالمغول : من الشرق الإمبراطورية الصينية بعاصمتها بكين ؛ وبطول المناطق العليا على النهر الأصفر كانت مملكة هسياسى التانجوتية، تحكمها أسرة حاكمة من أصل تبتي ، رعاياها مغوليون يتألفون من خليط من المغول والأتراك والصينيين ؛ وفى الجنوب الغربى مملكة كاراخايتاي ، التى تتألف من جماعات رحل بوزيون من منشوريا ، شردهم أباطرة الصين فى بداية القرن الثانى عشر، والأتراك المسلمين فى باركاند وخوتان .

وبدأ جنكيز خان بمهاجمة أضعف الممالك الثلاث ، مملكة هسياسى ، وفى ١٢١٢م قبل ملكها سيادته . ثم غزا الإمبراطورية الصينية ، وبعد عدة معارك طاحنة ضم الريف كله حتى البحر الأصفر وشانتونج . وصمدت أمامهم المدن ذات الأسوار الضخمة ، فلم يكن المغول معتادين على فن الحصار ولا على مهاجمة الأماكن الحصينة ، إلى أن التحق مهندس صينى يدعى ليوبولين بخدمة جنكيز خان . وبحلول عام ١٢٢٦م ، وبعد أن تعلم المغول اقتحام الأسوار والقلاع ، أصبح الإمبراطور الصينى من أتباع جنكيز خان الذى كان قد استولى قبل ذلك فى ١٢٢١م على مقاطعة منشوريا الصينية ، واعترفت كوريا بالسيادة المغولية . وفى تلك الأثناء وسع جنكيز خان غزواته باتجاه الجنوب الغربى ، وبذا أصبح على اتصال مباشر بأراضى الخوارزميين .

٥ - محمد شاه الخوارزمي

كانت الإمبراطورية الخوارزمية في أوج عظمتها ، وعلى رأسها محمد شاه الذي كان سيدا لكل آسيا من كردستان والخليج الفارسي إلى بحر الآرال والبالير واليندوس في أرض ما وراء النهر *Transoxiana* الواقعة شرقي نهر جيحون (الأموداريا *Oxus River*) وغرب نهر سيحون (السرداريا *Jaxarter River*) (حاليا في أوزبكستان وجزء من تركمانستان وقازاخستان) .

وأرسل جنكيز خان إلى محمد شاه يطلب الإعتراف به سيدا أعلا باعتباره خان الأمم التركية المغولية . فشرع محمد شاه بالإهانة لهذا الطلب . وفي ١٢١٨م ارتحلت من منغوليا قافلة كبيرة من التجار المسلمين ومعهم مائة مغولي مرسلين في بعثة خاصة إلى البلاط الخوارزمي . وفي أوترور الواقعة في أراضي محمد شاه ، قتل الحاكم المحلي المسافرين وسرق بضائعهم وأرسل نصفها إلى محمد شاه ، وكان ذلك استفزازا لجنكيز خان لا يقدر على تجاهله . وفيما يلي رسالة أرسلها جنكيز خان بهذا الشأن :

رسالة جنكيز خان إلى خوارزم شاه

أرسل جنكيز خان تجارا إلى خراسان فقتلهم نائبها من قبل خوارزم شاه فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه عن هذا الأمر ، وكان مما قال: من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة . ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك ، فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم ، وإلا فأنت تتكره وتقتص من نائبك . ولكن خوارزم شاه قتل رسول جنكيز خان .

(البدائية والنهاية لابن كثير ج ١٣ - ١١٩) .

٦ - هزيمة محمد شاه الخوارزمي

قيل إن محمد شاه كان قادرا على دخول الحرب بنصف مليون جندي ، وفى وقت متأخر من صيف عام ١٢١٩م خرج جنكيز خان على رأس مئتى ألف رجل وأصبح على مبعده ألف ميل من دياره ، وانضم إليه فى الطريق باتجاه الغرب ملوك من أتباعه ، مثل أمير الأوغور . ومكث محمد شاه بجيشه الرئيسى فى مدينتى ما وراء النهر العظيمنتين بخارى وسمرقند ، بعد أن قسم جنوده بين خط سيحون (السرداريا) وممرات فرغانة ، إذ لم يكن وانقا من المكان الذي سوف يضرب فيه المغول ضربتهم .

وفى فبراير ١٢٢٠م تقدم جنكيزخان مع جيشه الرئيسى مباشرة إلى بخارى ، وسرعان ما فتح له المدنيون أبواب المدينة ، وقاوم الأتراك فى القلعة لأيام قليلة ، ثم نبهوا عن آخرهم ومعهم أئمتهم المسلمين الذين كانوا يشجعونهم . ومن بخارى واصل جنكيز خان زحفه على سمرقند حيث انضم إليه أبناؤه . واستسلمت الحامية التركية من فورها راجية الانضمام إلى جيش جنكيز خان الذى رأى أن هؤلاء الجنود لا يعتمد عليهم وغير جديرين بالثقة فقتلهم جميعا . وكان محمد شاه قد انسحب ، بعد أن فقد الثقة فى جنوده ، إلى عاصمته أورغينج على ضفاف نهر جيحون (الأموداريا) بالقرب من كيفا . وأرسل جنكيز خان أبناءه لمحاصرة أورغينج ، فهرب محمد شاه إلى خراسان بطارده أكثر قادة جنكيز خان ثقة - سوبوتاي وجيى - لكنه تمكن من الفرار من مطارديه إلى أن مات فى ديسمبر ١٢٢٠م فى جزيرة صغيرة فى بحر قزوين كسير القلب وحيدا .

٧ - جلال الدين بن محمد شاه الخوارزمي

تمكن جلال الدين من الإنسحاب بجيشه في فرغانة إلى أفغانستان ، وأوقع هزيمة ماحقة بالجيش المغولي المرسل لإخضاعه . فكان قتاله أفضل من قتال أبيه . وانتقل جنكيز خان نفسه عبر الأكسوس عابرا بلخ التي استسلمت له ، فأنقذت نفسها ، ثم إلى باميان في أواسط كوش الهندية حيث صمدت القلعة ، وأثناء الحصار قتل حفيده الأثير لديه - موتوجين - فلما استولى على المدينة لم يترك فيها مخلوق على قيد الحياة . وفي ذلك الوقت زحف ابنه تولوي ، ومعه زوج ابنته توجوتشار غربا واستوليا على ميرف ، ودارت المذابح بحيث لم يبق على قيد الحياة سوى أربعمائة من أصحاب المهن الماهرين الذين أرسلوا إلى منغوليا . ثم استوليا على نيسابور ، وهناك قتل توجوتشار صهر جنكيز خان ، فلقبت المدينة نفس المصير وتولت أرملته شخصيا تنفيذ المذابح . وفي عام ١٢٢١م تقدم جنكيز خان خلال أفغانستان لمهاجمة جلال الدين وتمكن من تدمير الجيش الخوارزمي ، وهرب جلال الدين عبر النهر ولاذ بملك دلهي ، ووقع أبنائه في الأسر وقتلوا .

وأقصى جنكيز خان حوالى سنة في أفغانستان . وكانت مدينة هيرات الضخمة التي سبق أن استسلمت للمغول قد ثارت بعد انتصار جلال الدين في بارفان ، فحاصرها جيش مغولي بضعة أشهر واستولى عليها في شهر يونية ١٢٢٢م ، وقتل سكانها وعددهم بضع مئات من الآلاف ، واستمرت المجزرة لأسبوع . وعاد جنكيز خان إلى أرض ما وراء النهر حيث نصب حاكما خوارزميا ، مسعود بالاواش ، وأحاطه بمستشارين مغول لمراقبته والسيطرة عليه ، وأرسل والد مسعود ، محمد بالاواش ، شرقا ليحكم بكين . وقد اتبع جنكيز خان تلك الوسيلة التشريفية لمزيد من ضمان ولاء مسعود . وفي ربيع عام ١٢٢٣م عاد

جنكيز خان عابرا نهر سيحون (السرداريا) وارتحل إلى مهل عبر السهوب ، ووصل إلى إرتيش فى صيف ١٢٢٤م ، ثم إلى وطنه فى الربيع التالى .

٨ - المغول فى إيران وجورجيا

خلال عام ١٢٢٠م ، لم يتمكن القائدان - سوبوتاي وجي - اللذان كانا يطاردان محمد شاه القبض عليه ، فانحرف القائدان غربا ، واحتلّا الري القريبة من طهران ونهبها جيشهما ، لكنهما أبقيّا على حياة أغلب السكان ، وانتقلا بعد ذلك إلى مدينة قُم وقتلوا كل سكانها ، ولقيت مدينتا كاسفين وزينجان نفس المصير ؛ أما همدان فاستسلمت وأنقذت نفسها ودفعت إتاوة ضخمة ؛ وكذلك فعلت مدينة أنريجان تجنباً للهجوم على تبريز . وواصل الجيش زحفه فى فبراير ١٢٢١م لمهاجمة جورجيا ، وهزم الملك جورج الرابع بن الملكة تمارا هزيمة نكراء فى خونانى الواقعة جنوب تفليس مباشرة ، وكانت كارثة لم يبرأ منها الجيش الجورجى قط . وفى ١٢٢٢م خربوا مقاطعات جورجيا الشرقية ، وساروا بطول ساحل بحر قزوين وهزموا القوقازيين كذلك . وفى ٣١ مايو ١٢٢٢م دمروا جيشا روسيا ضخما بقيادة أمراء كييف وجاليش وسمولينسكى ؛ ولم يتابعوا انتصاراتهم ، وإنما هاجموا منطقة القرم وانتهبوها ، ثم تحولوا شرقا ليهزموا جيشا من بلغار الكاما وخربوا بلادهم . وفى بداية ١٢٢٣م وصلوا إلى نهر سيحون (السرداريا) حيث انضموا إلى جنكيز خان الذى ابتهج بنجاح غزوات جيشه .

٩ - موت جنكيز خان

مات جنكيز خان سنة ١٢٢٧م ، وقد امتدت سيطرته من كوريا إلى فارس ، ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة . ولم يحدث في التاريخ الإنسانى من قبل أن كان لرجل مثل هذه الإمبراطورية الشاسعة . على أن هذا الرجل يبقّى لغزا ؛ فقد قيل إنه كان طويل القامة وله عينان تشبهان عيني القط ، ولا شك فى أنه كان يتمتع بشخصية قوية لها تأثيرها على من حوله . وكانت قدرته على التنظيم كبيرة ، يعرف كيف ينتقى الرجال ، وقد وضع قواعد للتقاليد والآداب المغولية ، وطهر بلاده من اللصوص وقطاع الطرق ، وازدهرت التجارة تحت رعايته . لكنه كان شديد العنف بالغ القسوة ، ليس للحياة البشرية لدية أي اعتبار ، لا يعرف معنى التعاطف ولا يعي المعاناة الإنسانية ، ومن اليسير عليه أن يزهق أرواح الألوف ، وقد هلك ملايين البشر من قاطنى المدن فى حروبه ، ولم يسلم القرويون . فقد شاهد الملايين من القرويين حقولهم وبساتينهم تتحول فى لحظات إلى خراب .

هزا بالإنسان وأقام إمبراطوريته على أشلاء إنسانية ، وثبت دعائم الإمبراطورية بأعمدة البؤس الإنسانى . وكان قد أطلق على نفسه إسم :

(سوط الله المرسل لمعاقبة الإنسانية على آثامها) .





جندی مغولی

الفصل الرابع

هولاكو

مهارة الجلاء

- ١- هولاكو الجلاّد
- ٢- هولاكو يقضى على الحشاشين
- ٣- كارثة بغداد
- ٤- هولاكو فى ميافارقين
- ٥- هولاكو فى حلب
- ٦- إستسلام دمشق



١ - هولاكو الجلاّد

مر بنا موت جنكيز خان عام ١٢٢٧م ، وكانت الأعراف المغولية تقضى بأحقية الإبن الأكبر ونريته من بعده فى تولى الخانية الكبرى للمغول ، وبأحقية الأخ الأصغر فى دعوة المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد للتصديق على الإستخلاف . بيد أن جنكيز خان خالف تلك الأعراف ومنح الخانية الكبرى لإبنه الثالث أوغوداي ، وبذا تخطى إبنه الأكبر يوجى ، وإبنه الثانى باجاتاي الذى كان جنديا مقتدرا . وكان جنكيز خان يظن فى إبنه الثالث أوغوداي صبورا يساعده على أن يكون خانا أكبر ، وأن لديه مهارة فى معاملة أتباعه ؛ أما الإبن الأصغر تولوي ، فكان بيده حسم الخلافات ودعوة المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد . وقد عمل بوصية والده وشجع زعماء القبائل على إمضاء رغبات والده ، وبذا أصبح أوغوداي الخان الأكبر . والتزم زعماء القبائل بتنفيذ القانون المغولى الامراطورى ، والموافقة على قرارات حكومة الخان الأعلى فى العاصمة كراكوم . واستمرت وحدة الإمبراطورية .

على أن الخان الأكبر أوغوداي مات فى العاصمة كراكورام يوم ١١ ديسمبر ١٢٤١م ، بينما الجيوش المغولية تحارب فى هنجاريا وكرواتيا وحتى البحر الأدرياتيكى . وحدث خلاف فى الأسيرة المغولية ، فتولت توراجينا خاتون ، أرملة أوغوداي الوصاية ، وتولت إدارة الحكومة لخمس سنوات ، وكانت ذات طاقة ونشاط ، وبرغم أنها كانت مسيحية بالميلاد إلا أنها قربت أليها مسلما هو عبد الرحمن الذى اتهمته الشائعات بتعجيل وفاة أوغوداي .

ولم تهدأ الخلافات فى العائلة المغولية ، ورفض أحفاد أوغوداي حضور المؤتمر (كوريلتاي) ، وتآمروا على أعضائه وهاجموهم وهم سكارى ، واندلعت حرب أهلية

متقطعة استمرت عاما بكامله ، تمكن حفيد جنكيز خان ، مونغا (ابن تولوي ، الإبن الأصغر لجنكيز خان) في نهايتها من الانتصار على أنداده جميعا .

وعهد مونغا بالمقاطعات الشرقية إلى أخيه الثاني قوبلاي الذي راح يغزو الصين بصورة منسقة ، وكانت حكومة فارس من نصيب هولاکو ، الأخ الثالث للخان الأكبر مونغا . وفيما يلي وصية مونغا لأخيه هولاکو :

وصية منكوقا آن (مونغا خان) لأخيه هولاکو

لما سلمه قيادة الجيش الذي أرسله لفتح الغرب (غرب الصين)

إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها ، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران :

سر من توران إلى إيران مظفراً واعل باسمك إلى الشمس الساطعة وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه ، في الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر ، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك ؛ أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به . وابدأ بإقليم قيسان في خراسان ، فخرّب القلاع والحصون :

اجعل كِرْدوكوه وقلعة لنبه مر

بحيث يكون رأسهما إلى أسفل وجسدهما إلى أعلى

ولا تبق في الدنيا قلعة قط

ولا كومة واحدة من التراب

فإذا فرغت من هذه المهمة ، فتوجه إلى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقا . أما إذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين . كذلك ينبغي أن تجعل رائدك فى جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد ، وأن تكون فى جميع الأحوال يقظا عاقلا ، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ، وأن ترفه عنهم . وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها فى الحال . وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتى عديدة. وشاور دوقوزخاتون فى جميع القضايا والشؤون .

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١ ، ٢٣٦ - ٢٣٧)

٢ - هولاکو يقضى على الحشاشين

وفى ١٢٥٣م ، زحف هولاکو بقواته لاقتحام سوريا وكانت مهمته إخضاع وضم الأراضى كجزء من مشروع جنكيز خان — ألا وهو توحيد العالم أجمع تحت السيطرة المغولية .

ويختلف الدارسون حول الحجم الحقيقى لقوات هولاکو، بيد أنها كانت هائلة بمقاييس ذلك الزمان . فكان الحشد (أوردو) يضم ما يقرب من ٣٠٠.٠٠٠ محارب على خيولهم ،

ومعهم نساء وأطفال وآخرين من غير المقاتلين بحيث بلغ عدد الحشد كله بالتقديرات المتحفظة حوالى مليونين . ولم يكن ذلك جيشا وإنما ما يشبه قوة كاسحة أرسلتها الطبيعة ، لا يقف فى وجهها شئ .

ووصل هولاءكو فارس سنة ١٢٥٦م ، وبدأ يعد العدة لثأر قديم . ذلك أنه قبل ذلك بأعوام قليلة اكتشف المغول مؤامرة لإرسال ٤٠٠ رجل من الحشاشين المتتكرين المهرة فى استخدام الخناجر إلى عاصمتهم كراكورام، بتعليمات تقضى باغتيال الخان الأعظم . وكان المذهب الإسماعيلى يعيىث فى المنطقة رعبا وفسادا طوال مائة سنة . وراح المنادى المغولى ينادى على زعيم الحشاشين ركن الدين : "أفسحوا لمن يمسك بأرواح الملوك بين يديه" .

وكانت قلاع الحشاشين التى تسمى "عش النسر" والبالغ عددها مائتين تقع فى أماكن على الجبال لا سبيل إلى الوصول إليها ، واضطر حتى صلاح الدين نفسه إلى التوصل إلى اتفاق معهم للصعوبة البالغة فى الوصول إلى عشش النسر هذه .



بيان وجهه هولاءكو الى حكام ايران سنة ٦٥١ هـ

طالبيا مساعدتهم فى إخضاع قلاع الملاحدة كالموت وغيرها

بناء على أمر القآن فقد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة . فإذا أسرعتم وساهمتم فى تلك الحملة بالجيش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم . أما إذا تهاونتم فى امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل عذرکم ونتوجه إليکم فيجربى على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم .

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١ - ٢٤٠)

والآن انتقل المغول إلى جبال البروز جادين فى البحث عنهم . وطوال عامين تنقل المغول من قلعة إلى قلعة بكفاءة بالغة ؛ إذ كان المهندسون الصينيون ينصبون آلات الحصار ويستولون على عش النسروالواحد تلو الآخر . ولم يظهر هولاءكو أية رحمة ، فعندما كانت تسقط قلعة ، كان يقتل ساكنيها سواء من القادرين أو الأطفال فى مهودهم . وبنهاية الحملة تم تدمير الحشاشين تدميرا كاملا ، واقتيد ركن الدين مكبلا فى السلاسل إلى الخان الأعظم الذي أعدمه .



٣- كارثة بغداد

فى شهر فبراير سنة ١٢٥٨م قام هولاكو بتحويل جيشه البالغ ٣٠٠٠٠٠ جندى من أذربيجان باتجاه الجنوب الغربى . وكانت أوامر الخان الأعظم واضحة ؛ فينبغى أن تكون كافة الأراضي الواقعة إلى الجنوب الغربى تحت الحكم المغولى . وكانت المدينة الرئيسية فى الطريق هى بغداد ، لا يختلف أحد على أنها أعظم مدن العالم الإسلامى .

وكان الخليفة المستنصر العباسى قد دأب على صد الغارات المغولية عن شمال الرافدين ، أو أرض الجزيرة ، لسنوات عديدة . على أنه بموت المستنصر سنة ١٢٤٢م ، تولى الخلافة ابنه المستعصم الذى كان طائشا جبانا يستغله وزراء شداد يديرون شئون الخلافة بينما ركز المستعصم على الأمور الروحانية .

رسالة هولاكو إلى المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين

بعباته ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة ٦٥٥هـ

لقد أرسلنا إليك رسالة وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مددا من الجند ، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينا الجند والتسمت العذر . ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد

فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفى معها نور الشمس الساطعة

ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولى منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم ، والذل .

الذى حاق بأسر الخوارزميين والسلجوقية وملوك الديلمية والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوى عظمة وشوكة ، وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغداد مغلقا بوجه أية طائفة من تلك الطوائف ، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم ، فكيف يغلق فى وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسطان ؟! ولقد نصحنك من قبل . والآن نقول لك: احذر الحقد والخصام ، ولا تضرب المخصف بقبضة يدك ، ولا تلتطخ الشمس بالوحل فتتعب . ومع هذا فقد مضى ما مضى ، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لإبنه ويحضر لمقابلتنا . وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليمانشاه والدواتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص ، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد ، وسنبقى له على دولته وجيشه ورعيته . أما إذا لم يصغ إلى النصيح وأثر الخلاف والجدل ، فليعبئ الجند وليعين ساعة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد . وحينما أقود الجيش إلى بغداد ، مندفعاً بسورة الغضب ، فإنك لو كنت مختفياً فى السماء أو فى الأرض

فسوف أنزلك من الفلك الدوار

وسألقيك من عليانك إلى أسفل كالأسد

ولن أدع جيشاً فى مملكتك

وسأجعل مدينتك وإقليمك وأراضيك طعمة للنار

فإذا أربت أن تحفظ رأسك وأسبرتك فاستمع لنصيحى بمسمع العقل والذكاء ، وإلا فسأرى كيف تكون ارادة الله .

(جامع التواريخ للهمذانى جـ ٢، ق ١ - ٢٦٨)

ولقد أكد ابن العلقمى ، وزير المستعصم ، أن التهديد المغولى القادم ضئيل ، وأن دفاعات بغداد أكثر من كافية . وأخذ المستعصم إلى تأكيدات وزيره ، ولم يعبأ بتهديدات هولاكو التى ذكرها فى رسالته ، بل هزأ منها ، وكان رده على طلب هولاكو خالص السخرية والإستهجان . وخاصة ما كان هولاكو قد طلبه من أن يهدم أسوار بغداد .



رسالة الخليفة الجوابية حملها لهولاكو شفهيًا

شرف الدين ابن الجوزي وبدر الدين محمود وزنكي النخجواني

أيها الشاب الحديث ! المتمنى قصر العمر ، ومن ظن نفسه
محيطًا ومتغلبًا على جميع العالم مغترًا بيومين من الإقبال ، متوهمًا أن
أمره قضاء مبرم وأمر محكم . لماذا تطلب منا شيئًا لم تجده :

كيف يمكن أن تتحكم في النجم وتقيده بالرأي والجيش والسلاح

ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى
الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ، ممن يؤمنون بالله ويعملون
بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى ، إننى حينما أشير بجمع
الشتات ، سأبدأ بصمم الأمور فى إيران ، ثم أتوجه منها إلى بلاد
توران ، وأضع كل شخص فى موضعه ، وعندئذ سيصير وجه
الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والإضطراب ، غير أننى لا أريد الحقد
والخصام ، ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم . كما أننى لا أبغى من
وراء تردد الجيوش أن تلهج السنة الرعية بالمدح أو القذح ، خصوصاً
وأنتى مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد . وإذا كنت
مئلى تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتى وحصونهم ، فاسلك
طريق الود وعد إلى خراسان ، وإن كنت تريد الحرب والقتال :

فلا تتوان لحظة ولا تعتذر
 إذا استقر رأيك على الحرب
 إن لى ألؤفا مؤلفة من الفرسان والرجالـة
 وهم متأهبون للقتال
 وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان .
 (جامع التواريخ للهمذانى جـ ٢ ، ق ١ ، ٢٦٩ - ٢٧٠)

رسالة جوابية من هولاءكو إلى الخليفة المستعصم بالله

وقد امتلأ غضبا للرسالة السابقة

إن الله الألى رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الأرض كله من
 الشرق إلى الغرب ، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه ،
 تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه ، ومن يفكر فى الخلاف والشقاق لا
 يستمتع بشئ من ذلك .

ثم عاتب الخليفة بشدة قائلا: لقد فتتك حب الجاه والمال والعجب
 والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يعد يؤثر فيك نصيح الناصحين
 بالخير . وإن فى أذنيك وقرا فلا تسمع نصيح المشفقين ، ولقد انحرفت عن
 طريق آبائك وأجدادك ، وإن فى عليك أن تكون مستعدا للحرب والقتال ،
 فأنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد . ولو جرى سيرالملك على
 شاكلة أخرى فتلك مشيئة الله العظيم .

رسالة ثانية من الخليفة الى هولاء

أرسلها له على يد بدر الدين قاضي بندنيجان

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال ، إذ أن كل ملك — حتى هذا العهد — قصد أسرة بنى العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى إلى يوم القيامة . وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصغار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ أربه ، إذ مات بعلّة الزحار ، والأمر كذلك مع أخيه عمرو ، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني وكيله وأرسله إلى بغداد لكي يجرى عليه الخليفة ما حكم به القضاء . وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديقة . وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر . وفي النهاية علم طغرل بك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله ، وأخرج الخليفة من السجن وأعادته إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمود السلجوقي بغداد فعاد منهزما وهلك في الطريق . وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصدا استئصال هذه الأسرة فابتلى في روابي استرآباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده ، وعاد خائبا خاسرا ثم لاقى ما لاقى

من جدك جنكيز خان فى جزيرة آيكسون . فليس من المصلحة أن يفكر الملك فى قصد أسرة العباسيين ، فاحذر عین السوء من الزمان الغادر^(١).

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١ — ٢٧٥ — ٢٧٦)

(١) هناك بعض الأخطاء التاريخية فى هذه الرسالة ، فالبساسيرى لم يأت بجيش من مصر ، وإنما اعتمد على جيشه الخاص وحليفه الأمير البدري قریش . والخليفة العباسى القائم التجأ إلى مدينة الحديثة واستقر فى إحدى قلاعها ، ولم يسجن وإنما لجأ إلى أمير بدوى يدعى مهارش بن مجلى فأجاره . كما أن البساسيرى خطب فى بغداد للخليفة الفاطمى مدة سنة تقريبا .

ودون أن يدري المستعصم ، كان وزيره العلقمى يتراسل سرا مع هولاکو يحثه على الهجوم واصفا حالة دفاعات المدينة بأنها واهية يرثى لها . وتؤكد الروايات الفارسية عن هذه الخيانة أن رئيس الوزراء ، وهو شيعى مسلم ، كان مدفوعا باستيائه من اضطهاد الخليفة لإخوانه من الشيعة . وفى ذات الوقت كان السفراء فى جيئة وذهوب يعرضون دفع إتاوة لهولاکو، رافضين الإستسلام ، بينما كان الجميع من وراء اسوار المدينة قد تملكهم الخوف والاضطراب بصورة متزايدة .

وأخيرا نفذ صبر هولاکو من إطالة المناقشة مع المستعصم وبدأ عملياته العسكرية ، وشاركه فى العمليات العسكرية الجورجيون المسيحيون الذين وجدوا فرصة للسلب والنهب — ولما كانت زوجة هولاکو ، دوکوزخاتون ، مسيحية ، فقد اعتقد بعض الجورجيين اعتقادا حقيقيا أن المغول يقومون بحملة صليبية جديدة لتحرير "الأراضي المقدسة" من الكفرة .

رسالة قائد طلائع الجيش المغولي جوق إلى قبحاق قراسنقر ،

قائد طلائع جيش الخليفة عند الزحف على بغداد

إننى وإياك من جنس واحد [كانا من أصل خوارزمى] وبعد البحث والتدقيق التحقت بخدمة هولاكو بسبب الفقر والإضطراب ، ودخلت فى طاعته ، وهو الآن يعاملنى معاملة طيبة ، فأنقذ أنت أيضا حياتك وترفق بها ، واشفق على أولادك وقدم الطاعة حتى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم .

جواب قراسنقر على رسالة سلطان جوق السابقة:

من يكون هؤلاء المغول حتى يقصدوا أسرة العباسيين . لقد شاهدت هذه الأسرة الكثير من أمثال دولة جنكيز خان التى تترنح من كل ريح عاصف ، ثم إن العباسيين قد استمروا حكما أكثر من خمسمائة سنة، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان . وإن فليس من العقل والكياسة أن تدعونى لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز خان ، وكان الأولى بالود والمسالمة ألا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة ، وأن يعود إلى خراسان وتركستان ، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه . فإذا كان هولاكو نادما حقا على فعلته فعليه أن يعيد الجيش إلى همدان ، لكي نجعل الدواatar شفيعا فيتضرع بدوره إلى الخليفة عله يزول ألمه ويقبل الصلح فيغلق بذلك باب القتال والجدال .

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١ — ٢٨٣ — ٢٨٤)

وعندما أصبح المغول على مقربة يوم واحد ، استيقظ المستعصم أخيرا على الخطر .

وصدرت الأوامر بترميم الأسوار ، وأرسلت فرقة من ٢٠٠٠ ر ٢٠ جندى للتصدى للعدو .

رسالة هولاكو للخليفة قبل الهجوم النهائي

على بغداد مباشرة

إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج ، وإلا فليأتأهب للقتال . وليحضر إلينا قبل كل شئ الوزير وليمانشاه والدواتدار ليسمعوا ما نقول .

(جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ — ٢٨٤)

وبينما كانت الفرقة في معسكرها في الحقول على مرمى البصر من المدينة ، فاجأها المغول بتدمير الجسور والسدود القريبة مما أغرق المعسكر . فغرق أغلب جنود الفرقة ، ومن لم يغرق قطع فرسان المغول أوصاله .

ثم انتقلت القوات المغولية ودخلت الضواحي . وفي الجانب الشرقي استخدم مهندسو هولاكو أعدادا كبيرة من العبيد المساجين في إنشاء خنادق ومتاريس أحاطت بالمدينة . وفي ٣٠ يناير بدأ قصف بغداد . وتحركت الأحداث بسرعة حتى أن المغول ، حينما تنفذ الذخيرة التي تستجلب على عربات وتقطع من جبال حميرين على مبعده ثلاثة أيام ، كانوا يستخدمون لوحات المنجنوقات بقايا أشجار النخيل وقواعد المباني من الضواحي المحتلة .

وأرسل المستعصم رسالة إلى هولاكو يقبل فيها كل شروط الخان :

رسالة الخليفة النهائية لهولاكو بعد أن أيقن باليوار بعد هزيمة جيشه

وبدء بغداد بالسقوط في يد هولاكو ، فأرسل الخليفة هذه الرسالة مع الجائليق

والوزير نيقولا ليقولا لهولاكو ما يلي :

إن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير ، ها أنذا قد ليبت طلبه فينبغي أن يكون الملك عند كلمته .

جواب هولاءو للخليفة عن هذه الرسالة السابقة

إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على باب ممدان . أما الآن فنحن على باب بغداد . وقد ثار بحر الإضطراب والفتنة ؛ فكيف أقنع بواحد ينبغي أن ترسل هؤلاء الثلاثة . يعنى بالثلاثة الدواتدار وسليمانشاه والوزير .

(جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ ٢٨٧)

فات وقت المفاوضات . وكان أعنف القصف موجهاً إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من الأسوار ، وفى أول فبراير ، وهو ثالث يوم للقصف ، تحول البرج الفارسى إلى حطام . وفى اليوم السادس أطر المغول السور الشرقى قصفاً واستولوا عليه ، ومكثوا هناك بينما كانت المدينة تستسلم .

وظل المستعصم يرسل إلى هولاءو المبعوث تلو المبعوث مستعطفاً وضع شروط ، ولكن بلا أذن صاغية ، وبدلاً من ذلك طلب هولاءو أن يقوم قائد جيش الخليفة والوزير بإصدار الأوامر بانسحاب الجيش الإسلامى من المدينة . ونفذ القائد والوزير المهمة ، بأن أعلنوا على الجنود بأنه قد سمح لهم بالمسير إلى سوريا . وما أن تجمع الجيش فى السهل الواقع خارج الأسوار حتى أحاط بهم المغول وقتلهم عن آخرهم ، ثم قتل قائد الجيش والوزير كذلك . وهكذا باتت بغداد بدون جندى واحد يدافع عنها ، ومن ثم أمست فى قبضة هولاءو تماماً .

وفى العاشر من فبراير ذهب المستعصم وأولاده الثلاثة وحاشية من ٣٠٠٠ من النبلاء إلى معسكر هولاكو. واستقبلوا بكياسة. وأمر هولاكو المستعصم بأن يأمر السكان بالجلء عن المدينة. فأرسل الخليفة رسلا إلى بغداد ينادى بأن كل من يرغب فى إنقاذ حياته عليه أن يخرج من المدينة دون سلاح. وتدفقت الحشود من الناس خارجة من بوابات المدينة، وما أن تجمعوا معا فى أرض مكشوفة حتى ذبحوا بلا رحمة. ويختلف عدد القتلى باختلاف المصدر الوارد فيه، فالرواية الفارسية تتحدث عن عدد يتراوح بين ٨٠٠.٠٠٠ و مليونين ذبحوا، بينما ذكر هولاكو فى رسالة أرسلها إلى الملك الفرنسى لويس التاسع متباهيا بقتل ٢٠٠.٠٠٠ شخص. وفى استعراض للأسلوب المغولى لبيان مدى النجاح، كان جنود المغول يقفون فوق أسوار مدينة بغداد اليائسة فى انتظار الأوامر. وفى الثالث عشر من الشهر دخل المغول المدينة فى عدة صفوف من نقاط مختلفة، وقيل لهم أن يفعلوا ما يحلو لهم، وكان ما يحلو لهم هو التدمير والتشويه المتعمد. فهدمت مساجد رائعة؛ ونهب القصر ثلث القصر فى عريضة الهدم. ذلك كان خراب بغداد.

وعلى الرغم من ذلك، ومن أن المدينة قد فقدت وضعها التجاري الرفيع، فقد بقيت مركزا ثقافيا وروحانيا وفكريا هاما. وكانت المدينة تضم أكثر من ثلاثين كلية، من بينها الكلية المستنصرية التى كانت الجامعة الأفضل تجهيزا فى العالم. وكانت المدينة مرصعة بالمساجد الرائعة، والمكتبات الكبيرة للأدب الفارسى والعربى، فضلا عن قصور عديدة تنتمى إلى الخليفة وعائلته، وربما كان بها كنز من أعظم الكنوز الشخصية، لا يعثر على مثله فى أي مكان آخر. لقد كانت بغداد أعظم مدينة استولى عليها المغول فى الشرق

الأوسط ، وفى واحة الحضارة هذه ، أتى المغول بالسيف للذبح والتقتيل وبالشعلة للهدم والتحريق . والقيت الكتب فى نهر دجلة حتى اسودت مما فيها من الحبر .

واقْتيد النساء والأطفال الباقون على قيد الحياة ونقلوا إلى كراكورام ، وكذلك ثروة خزانة بيت مال الخليفة .

وفى يوم ١٥ ، وبينما كان النهب على قَدَم وساق، زار هولاكو قصر المستعصم وأجبر الخليفة على إقامة مأدبة لقادة المغول أثناء أن كانت المدينة تَحترق والصرخات فى الشوارع تتردد أصداها ليلا . كما أجبر المستعصم على تسليم كل كنوزه من الذهب والفضة والمجوهرات. وحذر أحد المغول المسلمين هولاكو من قتل المستعصم قائلا إنه إذا لمست قطرة من دم الخليفة الأرض فإن ذلك يعنى اللعنة الأبدية . وانتبه هولاكو إلى هذا التحذير . وبعد انتهاء العشاء أمر هولاكو بوضع الخليفة وأولاده فى سجاجيد مغولية وخياطتها ، ثم أمر بأن تدوسهم حوافر فرسان المغول حتى ماتوا . وهكذا لم يلمس دم الخليفة الأرض .

واستمرت آلام بغداد سبعة أيام ؛ وفى العشرين من الشهر أضطر هولاكو إلى الإبتعاد وضرب خيامه بعيدا عن المدينة بسبب الرائحة النتنة المنبعثة من الجثث العفنة المعلقة على الجدر ذات الأدخنة . وكان ذلك علامة على ما بقى مما كان يوما ما مدينة عظيمة لا مثيل لها .

ويقال إن أعداد المسلمين الذين قتلوا فى تلك المذبحة الرهيبة ٨٠٠.٠٠٠ ر ١، وطلب هولاكو من المسيحيين أن يأكلوا الخنازير ويشربوا الخمر احتقالا ، بينما أجبر المسلمين

الباقين على قيد الحياة على أن يشتركوا فى مسابقات شرب الخمر، وكانت الخمر تُرش فى المساجد ، ولا يسمح لمؤذن بالأذان للصلاة .

٤ - هولاكو فى ميفارقين

وهكذا ، لم تعد العاصمة العباسية مركز القوة السياسية فى العالم الإسلامى، وإنما كانت ما تزال قلبه الفكرى .

واجتمعت مهارة الجلادين المغول وحمق الخلافة ، أو بالأحرى حمق الخليفة ، والخيانة ؛ بحيث احتلّت بغداد ونُهبت وحُرقت من أساسها .

والآن عاد هولاكو إلى تبريز بينما صدم سقوط بغداد العالم الإسلامى كله . وتوافد الأمراء والشيوخ على طول خط تقدم المغول لتقديم فروض الولاء والطاعة . وبلغت المهانة بالأمراء حدا يفوق الأحلام ، إذ قدم أحد الأمراء - كاي قاووس - لهولاكو زوج خف للأقدام وقد رسم على النعلين صورة وجه الأمير حتى يتمكن هولاكو من أن يمشى على وجهه .

ومن بين الذين تحالفوا مع هولاكو هيثوم ملك أرمينيا المسيحي الذي ظن أن المغول يقومون بحملة صليبية جديدة لتحرير القدس من المسلمين . وشجع هذا المفهوم رئيس قادة هولاكو ، كيربوغا ، الذي لم يكن مسيحيا وحسب ، وإنما ادعى أنه من ذرية أحد الحكماء الثلاثة الذين جاءوا من الشرق لتقديم الهدايا ليسوع الطفل . وبعد أن قام هيثوم بزيارة هولاكو

أرسل رسائل إلى جيرانه الصليبيين يخبرهم فيها بأن هولاكو على وشك أن يعمد مسيحياً ،
وحتهم بشدة على أن يتحالفوا مع هذه القوة الجديدة وتحويلها إلى خدمة القضية الصليبية .

ولم يقف في وجه المغول سوى الكامل محمد أمير ميفارقين الذي رد على رسالة
الأمير المغولي بما يلي بعد أن طالبه بالإستسلام :

رسالة الملك الكامل محمد أمير ميفارقين

لأمير الجيس المغولي

ينبغي ألا يضرب الأمير في حديد بارد ، ولا يتوقع الشئ المستحيل
، إذ لا يوثق بوعدكم ، وإننى لن أخدع بكلامكم المعسول ولن أخشى
جيش المغول ، وسأضرب بالسيف ما دمت حياً . إذ كيف أثق بابن رجل
نكث العهد والميثاق مع خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وتاج الدين
إربل ؟ وقد جاء الملك الناصر لدين الله خصيص بأمانكم فرأى في نهاية
الأمر ما رأى ، وسوف أرى أنا أيضاً ما سبق أن رأوه .

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١-٣١٩)

وأرسل هولاكو جزءاً من جيشه إلى ميفارقين وبسرعة اخترق أسوارها ووقف
الكامل محمد يراقب الإجهاز على كل شئ حي . ثم ان المغول كتفوا الملك الكامل محمد بعد
القبض عليه ، وراحوا يقطعون أجزاء من جسده ويشوونها على نيران أمامه ثم يضعونها
في فمه ليأكلها قطعة قطعة .

٥ - هولاءكو فى حلب

وفى شهر سبتمبر ١٢٥٩م ، تحرك هولاءكو مرة أخرى فى عملية خاطفة ، وجمع كل قواته الرابضة شرقي نهر دجلة ، وعبر بهم نهر الفرات على جسر من الطوافات صنع من القوارب فى مانبيج . وعلم السلطان الناصر صاحب سوريا ، وهو الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر صاحب دمشق وحلب ، بتحركات المغول ، وكان قد عرض الخضوع للجيش المهاجم ، ولم يقبل هولاءكو بذلك لأن الخضوع لا يكفى ، وقيل للسلطان إن " مصيره السقوط " .

بضع رسائل من هولاءكو إلى الناصر الأيوبي

صاحب حلب ودمشق بعد سقوط بغداد :

الرسالة الأولى : كتبها له بالعربية نصير الدين الطوسي

أما بعد — فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فساء صباح المنذرين ، فدعونا ملكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذا وبيلا . وقد دعوناك إلى طاعتنا فإن أتيت فروح وريحان ، وإن أبيت فخزي وخسران ، فلا تكن كالباحث عن حقه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه فتكون من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فما ذلك على الله بعزیز والسلام على من اتبع الهدى .

الرسالة الثانية :

يعلم سلطان مصر ناصر، طال بقاؤه ، أنا لما توجهنا إلى العراق
وخرج إلينا جنودهم فقتلناهم بسيف الله . ثم خرج إلينا رؤساء البلد
ومقدموها فكان قصارى كلامهم سببا لهلاك نفوس تستحق الإهلاك .
وأما ما كان من صاحب البلد فإنه خرج إلى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا
فسألناه عن أشياء كذبنا بها فاستحق الإعدام وكان كذبه ظاهرا ووجدوا ما
عملوا حاضرا . أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعى المانعات ورجالى
المقاتلات . ولقد بلغنا أن شرذمة من العسكر التجأت إليك هاربة وإلى
جنايبك لائذة .

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء
فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضها وطولها
عرضها والسلام .

الرسالة الثالثة :

خدمة ملك ناصر — أطال عمره — أما بعد : فإننا فتحنا بغداد
واستأصلنا ملكها وملكها . وكان ظن ، وقد ضن بالأموال ولم ينافس
الرجال ، أن ملكه يبقى على تلك الحال وقد علا ذكره ونما قدره فخسف
فى الكمال بدره

إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

ونحن فى طلب الإزدياد على ممر الآباد ، فلا تكن كالذين نسوا
الله فأنسبهم أنفسهم . وإنبد ما فى نفسك إما إمساك بمعروف أو تسريح
بإحسان . أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره وتتل بره . واسع إليه
برجالك وأموالك ولا تعوق رسولنا والسلام .

ونشط الناصر فى الدفاع عن حلب ثم عاد جنوبا لتهيئة الدفاع عن دمشق . وفى يوم
١٣ يناير ١٢٦٠م ، وصل الجيش المغولى البالغ عدد جنوده ٣٠٠ر٠٠٠ جندى إلى حلب .
وأقام المهندسون المنجنيقات وسقطت المدينة فى غضون أيام . وعانت حلب نفس مصير
بغداد . إذ قُتل الرجال واقتيدت النساء والأطفال إلى أسواق العبيد فى العاصمة كراكورام
 . وصمدت قلعة المدينة بقيادة توران شاه المسن طوال شهر آخر ، وعندما يأسى من الأمل
فى الإنقاذ استسلمت فى نهاية الأمر . وفى حركة نادرة رحيمة من هولاكو ، أمر بالإبقاء
على حياة توران شاه اعترافا بشجاعته ونظرا لتقدمه فى السن . وقُتل أفراد الحامية جميعا .

رواية للشيخ قطب الدين فى (ذيل مرآة الزمان):

ملحوظة : المرجع الرئيس فى التعرف على هذه الأحداث هو كتاب
الهداية والنهاية للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن كثير ،
وكتاب الرقيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري .

ووصلوا إلى حلب فى ثاني صفر من هذه السنة ، فحاصروها
سبعة أيام ثم افتتحوها بالأمان .

ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل ،
 ونهبوا الأموال ، وسبوا النساء والأطفال ، وجرى عليهم قريب مما
 جرى على أهل بغداد ، فجاسوا خلال الديار وجعلوا أعزة أهلها أذلة ،
 فإننا لله وإنا إليه راجعون . وامتنعت عليه القلعة شهراً ثم استلموها
 بالأمان ، وخرّب أسوار البلد وأسوار القلعة وبقيت حلب كأنها حمار
 أجرب ، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان
 عاقلاً حازماً ، لكنه لم يوافق الجيش على القتال ، وكان أمر الله قدراً
 مقدوراً .

وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال
 الملك الناصر بدمشق ، فاجعلوا لنا عندكم شحنة ، فإن كانت النصره لنا
 فالبلاد كلها في حكمنا ، وإن كانت علينا فإن شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم
 أطلقتموه . فأجابوه ما لك عندنا إلا السيف ، فتعجب من ضعفهم
 وجوابهم، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد ، وكان ما كان بقدر الله
 سبحانه .

ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمفاتيحها إلى هولاكو،
 فاستتاب عليها رجلاً من العجم يدّعي أنه من ذرية خالد بن الوليد يقال
 له: خسرو شاه ، فخرّب أسوارها كمدينة حلب .

صفة أخذهم دمشق وزوال ملكهم عنها سريعاً

أرسل هولاکو وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغانوین ، فوردوا دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع ، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة .

٦ - استسلام دمشق

علمنا أن سلطان دمشق وحلب هو الملك الناصر بن العزيز بن الظاهر . وكان مصير حلب ثقيلًا على أهل دمشق الذين طردوا الناصر من المدينة ، وأعلنوا للمغول القادمين تسليمهم غير المشروط . ودخل هولاکو المدينة وبصحبه كيربوغا وهيثوم والأمير الصليبي بوهمود الرابع أمير أنطاكية الذي أخذ بنصيحة هيثوم . ولم يكن هولاکو يبالي قط بالمسائل الدينية ، ولكنه أجبر بوهمند ، وهو مسيحي لاتيني ، على تعيين بطرق أرثوذكسي يوناني على رأس الكنيسة في أنطاكية .

ويستطرد الشيخ قطب الدين قائلا :

وقد كتب هولاکو أماناً لأهل البلد ، فقرأ بالميدان الأخضر ونودي به في البلد ، فأمن الناس على وجل من الغدر ، كما فعل بأهل حلب ، هذا والقلعة ممتعة مستورة ، وفي أعاليها المجانيق منصوبة والحال شديدة . فأحضرت التتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرها ، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقر كثيرة ، فنصب المنجانيق على القلعة من

غربيها ، وخربوا حيطاناً كثيرة وأخذوا حجارتهـا ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتدارك .

فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها وتداعت للسقوط ، فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة ، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها ، وأعالي بروجها ، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة . وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا ، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي الحلبي ، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له: إيل سيان ، وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى ، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم ، فعظّمهم جداً ، وزار كنائسهم ، فصارت لهم دولة وصوله بسببه .

وذهب طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفاً ، وقدموا من عنده ومعهـم أمان فرمان من جهته ، ودخلوا من باب توما ومعهـم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ، ويقولون: ظهر الدين الصحيح دين المسيح . ويذمون دين الإسلام وأهله فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ومعهـم أواني فيها خمر لا يـمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرأ ، وقماقم ملأنة خمرأ يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهـم .

ودخلوا من درب الحجر فوققوا عند رباط الشيخ أبي البيان ورشوا عنده خمرأ ، وكذلك على باب مسجد درب الحجر الصغير والكبير ،

واجتازوا في السوق حتى وصلوا درب الريحان أو قريب منه ، فتكاثروا عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم . فوقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله . ثم دخلوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم وكانت عامرة ولكن كان هذا سبب خرابها . أنهم ضربوا بالناقوس في كنيسة مريم : وذكر أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر وكان في نيّتهم إن طالّت مدة التتار أن يخرّبوا كثيراً من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا في البلد اجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها إيل سيان فأهينوا وطرّدوا ، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم .

فإنّا لله وإنا إليه راجعون .

وهذا كان في أول هذه السنة وسلطان الشام الناصر بن العزيز وهو مقيم في وطأة برزه ، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم ، وكان في جملة من معه الأمير بيبرس البندقاري في جماعة من البحرية ، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير مؤتلفة ، لما يريد الله عز وجل .

وقد عزم طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعة أخيه شقيقه الملك الظاهر علي . فلما عرف الناصر ذلك هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذر وذاق الأمير ركن الدين بيبرس في أصحابه إلى ناحية غزة ، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه ،

وأقطعته قليوب ، وأنزله بدار الوزارة ، وعظم شأنه لديه ، وإنما كان
حنقه على يديه .

(قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان ج/ص: ٢٥٥/١٣)

وقد هرب الناصر إلى مصر ، لكن بعض جنود المغول أوقعوا به في السامرة وانتهى
الأمر باعتقاله بالقرب من غزة واقتيد مقيدا بالسلاسل إلى بلاط هولاكو . ووصل مبعوثو
هولاكو إلى مصر وسلموا السلطان قطز أمرا بالخضوع .



الفصل الخامس

سَيْفُ الدِّينِ قُطْرُ

الْأَسَدُ الْهَضُورُ

- ١- من سليل الملوك إلى مملوك
- ٢- سيف الدين قطز سلطان مصر
- ٣- إنذار هولاءكو إلى قطز
- ٤- قطز يأخذ بالشورى
- ٥- موت الخان الأكبر مونغا
- ٦- التحالف الصليبي المغولي



١ - من سليل الملوك إلى مملوك

يحدثنا شمس الدين الجزري في تاريخه عن "سيف الدين قطز" قائلا:

".. لما كان في رِقِّ ابن العديم بدمشق، ضربه سيده وسبَّه بأبيه
وجده ، فبكى ولم يأكل شيئاً سائر يومه ، فأمر سيده الفَرَّاش أن يترضاه
ويطعمه ، فروى الفَرَّاش أنه جاءه بالطعام وقال له: كل هذا البكاء
من لطفة؟

فقال قطز: إنما بكائي من سبِّه لأبي وجدي وهما خير منه .

فقلت: من أبوك؟ واحد كافر؟!..

فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ، أنا محمود بن ممدود ابن
أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك ، فسكت وترضىته .

كما يروي أنه أخبر في صغره أحد أقرانه أنه رأى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقد بشره بأنه سيملك مصر ويكسر المغول .

وهذه الرواية ، وإن كانت تحيطها الشكوك ، فإنها تدل على أن قطز كان يعتبر نفسه
صاحب رسالة دينية ، وأن له دوراً في مسيرة التاريخ ، وأنه سوف يغير الواقع المؤسف
الذي يعيش فيه .

ولقد كان سيف الدين قطز عبداً لرجل يسمى "ابن العديم" بدمشق ثم بيع من تاجر إلى
آخر حتى انتهى إلى "عز الدين أيبك" من أمراء ممالك البيت الأيوبي بمصر . وتدرج في

المناصب حتى صار قائداً لجند أبيك ، ثم قائداً للجيش عندما تولى "عز الدين أبيك" السلطنة مع شجرة الدر .

ومن ثم ، واستنادا إلى رواية المؤرخ شمس الدين الجزري ، فإن الاسم الأصلي لسيف الدين قطز هو محمود بن ممدود ، وهواين أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذى علمنا أنه تصدى للمغول بعد وفاة أبيه وانتصر عليهم فى عدة معارك ، واسترد منهم بعض المدن التى كانوا قد استولوا عليها . لكنه لم يجد عوناً من حوله من الممالك ولا من الخلافة العباسية التى تخلت عنه فى صراعه مع المغول دون أن تمد إليه يداً ، إلى أن تمكنت جحافل المغول سنة (١٢٣١م) من القضاء على دولته فى إقليم كرمان جنوبى إيران حالياً ، ثم لقي حتفه وحيداً شريداً .

وكان قطز من بين الأطفال الباقين على قيد الحياة ممن أخذهم المغول وباعوهم فى دمشق . ومضت حياته مثل غيره من الممالك الذين تبرز مواهب البعض منهم فترتفع بهم إلى القمة وتولى السلطة ، أو تقصر مواهبهم فلا ترتفع بهم إلى هذا العلو الكبير ، أو تضيق فى البعض منهم قدرات تجعل منهم أمراء فى الجيش أو خارجة .

مر بنا فى الحديث عن نشأة الممالك ، وفى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، أنه بعد نهاية الحكم الأيوبي فى مصر بوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تربعت شجرة الدر على عرش السلطنة بعد أن اتفقت كلمة الممالك على تأييدها سلطنة للبلاد ، فى سابقة لم تحدث فى التاريخ الإسلامى قط . وقد تخلت شجرة الدر عن السلطنة بعد اعتراض الخليفة العباسى وصدور فتوى إمام المسلمين بأن الشرع الإسلامى لا يتفق مع حكم المرأة للمسلمين ، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم فى القتال الدائر بين مصر وجنود الفرنج

بقيادة الملك لويس التاسع فى المنصورة . ولذا دفع المماليك بالأمير المملوكى عز الدين أيبك إلى مركز الزعامة لديهم وباركوا زواجه من شجره الدر وأصبح سلطانا وتلقب باسم الملك المعز عز الدين أيبك .

على أن الصراع بين المماليك وبين السلطان المملوكى الجديد تفاقم فى ظل ازدياد نفوذ زعيم المماليك أقطاي ، الذى أظهر استخفافه بالسلطان الجديد ، المعز ، وراح يظهر وحوله رجاله ومماليكه فى أبهة الملوك ، وبالف فى ازدرائه للسلطان فلا يذكره إلا باسمه المجرد ، أيبك ، إلى أن طمعت نفسه فى السلطنة ، فاستشعر السلطان عز الدين أيبك الخوف على عرشه ، فعزم على التخلص منه ، وأعد خطة لذلك اشترك فى تنفيذها أكبر مماليكه سيف الدين قطز ، فكان ذلك أول ظهور له على صفحات التاريخ . وبدأ منذ آنذاك طريقه نحو القمة ، إذ تمكن السلطان عز الدين أيبك من التخلص من غريمه أقطاي ، ونكل ببعض أمراء المماليك فهرب البعض من مصر .

٢ - سيف الدين قطز سلطان مصر

كما مر بنا فى الكتاب الأول من هذه السلسلة ، "شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر" أن أيبك قتل هو وزوجته شجرة الدر فى ظروف الإضطراب المملوكى الذى ساد البلاد ، ونصب المماليك نور الدين علي بن أيبك سلطانا على مصر ، وكان صبيا لا يصلح لمباشرة الحكم ، الأمر الذى جعل مقاليد البلاد فى يد سيف الدين قطز ، ومن ثم بدأ نجمه فى الظهور ، وقام بنشر الأمن فى البلاد فاستقرت الأمور ، وأحباط محاولات الأيوبيين استرداد مصر من أيدي المماليك ، فزاد ذلك من قوة إحكام قبضته على البلاد .

وفى تلك الأثناء كان المغول قد استولوا على أغلب العالم الإسلامى وخربوا بغداد واحتلوا سوريا ، وأصبحوا الآن يعدون العدة مع حلفائهم لصلبيين فى مملكة عكا ومدن الساحل الفلسطينى للإنقضاض على مصر والقضاء نهائيا على الإسلام والمسلمين فى العالم أجمع . وكانت الأخبار السيئة تتوالى على القاهرة من سقوط بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله ، إلى تحرك جحافل المغول نحو الشام التى تساقطت مدنها الكبرى فى يد هولاكو. كانت هذه الأنباء تزيد القلق فى مصر وترفع الإحساس بالخوف من أن تصبح عاقبة مصر كالشام.

وكان قطز وصيًا على المنصور نور الدين على بن أيبك بعد مقتل أبيه أيبك وشجرة الدر . وقد استشار كبار رجال الدولة والعلماء فى أمور البلاد فى حضور المنصور نور الدين على بن أيبك ، وانصرف المنصور عن المجلس دون أن ينطق بكلمة ، مما أثار رجال الدولة فأشاروا على قطز بعزله وتولي أمر البلاد ؛ فاستجاب لهم قطز وانتهز فرصة خروج الأمراء إلى الصيد فى منطقة العباسية بالشرقية ، وقبض عليه واعتقله بالقلعة هو وأسرته فى ١٢ من نوفمبر ١٢٥٩م، كما قام باعتقال مجموعة من أمراء المماليك المواليين لعز الدين أيبك وابنه ، ووضع على قيادة الجيوش ركن الدين بيبرس ، وبدأ فى ترتيب أوضاع السلطنة ، بعد أن بارك كبار الأمراء هذه الخطوة ؛ لإدراكهم أن قتال المغول لا يصلح بغير سلطان قوي. وصارهم قطز بأن الأمر سيؤول إليهم لاختيار من يريدونه بعد تحقيق النصر على العدو، وبدأ فى اختيار أركان دولته وتوطيد دعائم حكمه استعدادًا للقاء المغول . وهكذا تولى سيف الدين قطز سلطنة مصر كي يتمكن من إعداد البلاد للتصدى لهذا العدو الذي اجتاح آسيا وشرق أوروبا كالسيل الجارف الذى لا يقف فى طريقه شئ .



دينار قطز

متحف الفن الإسلامى ، القاهرة

محفور على هذا الدينار الذهبى اسم المظفر قطز
ومزين بالخط النسخ على كل من الوجهين بالعبارة الآتية :
المظفر قطز سيف الدنيا والدين
وقد ضرب فى الإسكندرية التى كانت مركزا تجاريا هاما
فى كل من الفترتين الفاطمية المملوكية .

٣ - إنذارا هولوكو إلى قطر

كان خان المغول الأكبر ، مونغا قد أمر أخاه هولوكو في وصيته أن يضم إلى أراضي الخانية "الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر" . وها هو هولوكو قد وصل إلى آخر نقطة ، مصر ، تنفيذاً لأوامر أخيه الخان الأكبر مونغا ، وتحقيقاً لرغبة جدهما جنكيز خان بالسيطرة على العالم كله . وبادر كالمعتاد بإرسال مبعوثيه برسالة إلى قطر .

رسالة هولوكو إلى سلطان مصر قطز

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه . فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم واسلموا إلينا أمرکم قبل أن ينكشف الغطاء فتدموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم وأي طريق تتجسكم وأي بلاد تتجسكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال .

وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لفتالنا لا تنفع ،
ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند كلام .
وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة
والهوان . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض
بغير الحق وبما كنتم تفسقون . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ،
فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا
أطعتم ، فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا
نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ،
وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة . وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة
والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغى
الإهانة ما لملوكم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد
الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها ، فلا
تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا ، وتدهون منا بأعظم
داهية وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ
حذرناكم . فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من
أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرها هلاوون قد أتى بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أدلة ويلحق أطفالا لهم بالأكابر

ويحدثنا المؤرخ دافيد ي . تشانز David W. Tschanz فى تاريخه واصفا بأسلوب شيق ما حدث فى ذلك اليوم الذي عرض فيه مبعوثو هولاكو على قطز رسالتهم السابق ذكرها ، وقد تناولنا روايته بعد ترجمتها بما يلزم من إعادة صياغة أسلوبها .

"كانت قاهرة القرن الثالث عشر تتألق كجوهرة على ضفاف النيل، وقد أفسح شتاء عام ١٢٦٠م ومضى لحلول الربيع ثم أفسح الربيع هو الآخر لأول لمسة من لمسات الصيف الحار . وكان سكان القاهرة قد بدأوا يباشرون أعمالهم اليومية دون أن يدركوا أن هناك شيئا غير عادي يحدث فى القصر السلطانى . وتمتم قليل منهم ما سمعوا من إشاعات وهم يحذقون فى قصر السلطان ويتفكرون فى ما يدور وراء أبواب القصر ، وفى هذه الحركة الدؤوبة التى تدل على إهتمام السلطان سيف الدين قطز وقادته بالوفد الأجنبى الموجود حاليا فى القصر .

وتملأ قطز فى مجلسه وحقق فى هؤلاء الرجال الأربعة الجالسين أمامه وقد امتلأ قلبه بمزيج من الكراهية والإشمئزاز . وكان المندوبون قد وفدوا من الأمير المغولى هولاكو ووضعوا أمامه تلك الرسالة التى كان أسلوبها بعيدا كل البعد عن الكياسة ، ودلت على أن مرسلها متعجرف مغرور على نحو لا يخاطب به رئيس دولة رئيس دولة آخر .

وللحظات ليست بالقصير ظل سفراء المغول ينظرون مليا فى وجه قطز فى جهامه وتحد ، وكذلك كان هو يتفحصهم وفى نفسه ما فيها

من مشاعر تعتمل وأفكار تعتلج . ثم نهض قطز وغادر المجلس أمراً
قائدته أن يتبعوه . أما سفراء المغول فقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة ،
وكانهم على ثقة من بلوغ غايتهم . .

وعقد قطز مع القادة مجلس حرب عاجل ، وأعاد القادة الحقائق
المعروفة عن التقدم المغولي . وتمعن قطز في الموقف . إنه رجل حازم
فخور بنفسه المطمئنة ، وليس هو بالرجل الذي يُخاطب بإنذار متعجرف .
لكنه كان واقعياً كذلك ، إذ سأل قائده هل يستطيع المماليك أن يتصدوا
للمغول؟ فلم يوافقهم أغلب القادة وأوصوا بالخضوع لطلبات المغول .

٤ - قطز يأخذ بالشورى

وبعد تلك الإطلالة على ما كتبه المؤرخ الغربى ، ننظر فيما كتبه الهمذانى ، المؤرخ
العربى ، فى جامع التواريخ ، كما جاءت دون تغيير :

محاورة السلطان قطز مع أمرائه وأرباب دولته

لما وصلته رسالة هولاكو المذكورة

لما وصلت الرسالة السابقة التى أرسلها هولاكو إلى السلطان
قطز صحبة جماعة من الرسل ، جمع السلطان أمراءه وأركان دولته
واستشارهم فى الأمر فقال :

لقد توجه هولاءكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد . ثم جاء إلى دمشق ، ولو لم يبلغه نعى أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى . ومع هذا فقد ترك فى هذه النواحي كيتوبوقا نويان الذى هو كالأسد الهصور والتتين القوي فى الكمين . وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته ، ويجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة .

فقال ناصر الدين قمرى :

إن هولاءكوخان ، فضلا عن أنه حفيد جنكيز خان وابن تولوى وأخو منكوقآن ، فإن شهرته وهيبته فى غنى عن الشرح والبيان . وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها فى قبضته الآن، وقد اختص بالتأييد السماوى . فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس فى ذلك عيب ولا عار . ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل . إنه ليس بالإنسان الذى يطمأن إليه ، فهو لا يتورع عن احتراز الرؤوس وهو لا يفى بعهده وميثاقه ، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكه وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق ، فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل .

فقال قطز :

والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممثلة بالمناحات والفجائع ، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل . فخلبت الأزواج والأبقار والبذور فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خرابا

تاما كغيرها من البلاد . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التى تريد بلادنا واحدا من ثلاثة ؛ الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك أنه لا يمكن أن نجد لنا مفرا إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة .

فأجاب ناصر الدين قمرى :

وليس هناك مصلحة أيضا إذ أنه لا يوثق بعهودهم .

فقال بقية الأمراء :

ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فربما يقتضيه رأيك:

عندئذ قال قطز:

إن الرأي عندى هو أن نتوجه جميعا إلى القتال ، فإذا ظفرنا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق .

فاتفق الأمراء بعد ذلك . ثم اختلف قطز بالبندقار الذى كان أميرا للأمراء وشاوره فى الأمر: إننى أرى أن نقتل الرسل ونقصد كيربوغا متضامنين فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون فى كلتا الحالتين معزورين.

فاستصوب قطز هذا الكلام وأمر بصلب رسل المغول .

(جامع التواريخ للهمذانى ج ٢ ، ق ١ ، ٣١١ - ٣١٣)

وفى حزم أصدر أوامره إلى حراسه ، فاعتقلوا السفراء من فورهم . وقد أمر قطز بقطع أجساد السفراء عند الوسط ، ثم قطع رؤوسهم وتعليقها على باب زويلة الكبير . وبات واضحا الآن أن الممالك قد التزموا بالدخول فى حرب مع المغول لا رجعة فيها .

ولم يغب عن ذهن قطز ما سيترتب على رده ذلك من نتائج لا تخرج عن حرب شرسة طاحنة ضده وضد أبناء أمته ، ومن ثم بات لزاما عليه الإستعداد لها . ولذا شرع فى إعداد مواطنيه وتسليحهم بسلاح الإيمان والوحدة قبل تسليحهم بالسيوف والرماح . ولكى يحقق الوحدة أرسل إلى أمراء الممالك المبعثرين ، مثل بيبرس البندقدارى ، الذى عرف بعد ذلك بأنه "الظاهر بيبرس" ، طالبا منهم نبذ خلافاتهم الهامشية ، وأن يكونوا يدا واحدة لمواجهة عدوهم الرئيسى وعدو الإسلام لإلحاق الهزيمة به .

وفى ذات الوقت ، لم يغب عن قطز دور العلماء الهام فى التأثير على الجماهير ، فنأشدهم المساعدة والنصرة ، عاقدا الأمل على دعائهم بالنصر ، وتحريض الناس على النود عن دينهم . وقد قرّب العلماء واتخذهم مستشاريه ونصحاءه .

وكان أبرز العلماء الذين شاركوا فى هذه التعبئة ، سلطان العلماء العز عزالدين عبد العزيز بن عبد السلام . وقد سأله قطز أن يصدر فتوى لفرض المزيد من الضرائب على العامة لتجهيز جيش المسلمين .

فأجاب الإمام العز بن عبد السلام قائلا:

"عندما لا يتبقى شئ فى بيت المال ، وعندما تتفق أنت كل ما تملك من ذهب وأحجار كريمة ، وعندما تصبح ملابسك التى ترتديها هى نفس الملابس التى يرتديها عامة الناس ،

فيما عدا لباس الحرب ، وعندما لا يصبح لدى أمرائك وخاصتك وقادة جنودك سوى عدة الحرب والحصان الذي يعلوه الجندي للقتال ، عندئذ يكون لك الحق في أن تفرض على عامة الناس ضرائب زائدة ، وتأخذ ما عندهم من بضائع لتحارب الأعداء" .

وهكذا أوضح عالم الإسلام المخلص أن أي حاكم لا يقدر على فرض ضرائب إضافية إلا بعد إنفاق ما يملكه من ملكية خاصة وما يملكه المحيطون به من القادة والأمراء ومن حولهم . وذلك ما حدث ، إذ جمع قطز الأمراء والمحيطين به من الأثرياء ، ووضع أمامهم كل ما يملكه من أموال ومجوهرات وتحف وأشياء ثمينة معلنا أنه يتنازل عنها لإعداد جيش المسلمين لمحاربة المغول ، وعلى الأمراء والحاضرين أن يحدو حذوه ففعلوا كلهم لم يبق منهم أحد .

وهكذا حصل قطز على ما يلزمه من مال دون أن يفرض ضرائب إضافية على الناس ، الذين شاهدوا بأنفسهم التزام قادتهم وخضوعهم لشريعة الله متمثلة فيما أفتى به عالم الإسلام المخلص ، فهبوا من يقظتهم وتحققوا من شرعية حكاهم ، وسارعوا إلى أداء واجب الجهاد وبذل أموالهم وأرواحهم لنصرة ما أمرهم به ربهم وصد الغزاة عن احتلال أرضهم .



٥ - موت الخان الأكبر مونغا

وصل إلى علم هولاكو نبأ موت الخان الأعظم مونغا . وقد مات الخان الأعظم يوم ١١ أغسطس ١٢٥٩م أثناء الحملة التي قام بها مع أخيه قوبلاي في الصين . وكانت التقاليد المغولية تقضى باستدعاء كافة أمراء القبيلة الذهبية ، بمن فيهم هولاكو ، للحضور إلى منغوليا لحضور المؤتمر (كورتلاي) لانتخاب خليفته . ولسخريّة القدر ، تسبب موت الخان الأسبق في سحب الجيوش من أقاصى الغرب بعد هزيمة البولنديين .

ولأن أولاد الخان المتوفى مونغا كانوا صغارا وقت وفاته ، فقد مارس الجيش في الصين ضغوطا لإستخلاف قوبلاي ، لكن الأخ الأصغر للخان المتوفى ، أريكبوغا ، انتهى عرش الخانية لنفسه ، خاصة وأنه كان يسيطر تماما على الوطن بعاصمته قراقوم والخزائن العامة لكنوز الإمبراطورية . وعقد الأخوان قوبلاي وأريكبوغا مؤتمرين (كورتلاي) ، وفي ربيع عام ١٢٦٠م انتخب كل مؤتمر أحد الأخوين خانا أعظم . وكان هولاكو يؤيد قوبلاي . ولم تحسم المسألة إلا في عام ١٢٦١م عندما هزم قوبلاي أريكبوغا في نهاية الأمر ، بينما ظل هولاكو مائنا في حذر على حدوده الشرقية ، متهيأ لدخول منغوليا إذا دعت الضرورة ؛ إذ كانت علاقة هولاكو مع أبناء عمومته في القبيلة الذهبية تتدهور شيئا فشيئا . وفي الوقت الذي كان بلاطه يظهر تعاطفا شديدا مع المسيحية ، كان الخان بيرك منحاذا إلى الجانب الإسلامي ، ومعتزضا على السياسة التي يتبعها هولاكو المعادية للإسلام .

وفي خضم هذه المشاكل سحب هولاكو جيشه الرئيسي من سوريا بعد استيلائه مباشرة على دمشق ، تاركا كيربوغا يحكم سوريا بقيادة آخذة في التقلص الشديد ، تاركا معه حوالي ١٥ إلى ٢٠.٠٠٠ جندي . وكانت الأوامر قد صدرت إلى كيربوغا بغزو مصر .

ولسوء حظ المغول كانت القوة الإسلامية العظيمة الوحيدة التي لم تهزم ، ألا وهي مصر المملوكية التي يقودها قطز ، تتأهب وتعد العدة لحرب الغزاة .

وفيما يلي رواية أخرى يقول فيها الأسقف دي مسنيل Du Masnil ، نائب مدير البعثات التبشيرية في روما ، في كتابه عن "الكنيسة والحملات الصليبية" :

اشتهر هولاکو بميله إلى النصارى النسطوريين، وكانت حاشيته تضم عددًا كبيرًا منهم ، من بينهم قائدهم الأكبر " كيربوغا "وهو تركي الجنس نصراني نسطوري ، كما كانت الأميرة دوكس خاتون زوجة هولاکو نصرانية أيضًا . ولقد لعب نفوذ هذه الأميرة على زوجها دورًا خطيرًا ، تفخر به الكنيسة في تجنب أوربا النصرانية أهوال الغزو التتري ، وتوجيه غزوهم إلى العرب المسلمين في الشرق العربي ، حيث ذبحت قوات التتار العرب المسلمين في مذابح بغداد ، في الوقت الذي أبقت فيه على النصارى في تلك المدينة ، فلم تمسهم في أرواحهم أو أموالهم بأذى ، كما لعبت الأميرة دورًا في إغراء زوجها باحتلال سورية الإسلامية .

ويصف الأسقف حملة التتار فيقول:

"لقد كانت الحملة التترية على الإسلام والعرب حملة صليبية بالمعنى الكامل لها ، حملة نصرانية نسطورية ، وقد هلك لها الغرب وارثب الخلاص على يد" هولاکو " وقائده النصراني " كئبغا " الذي تعلق أمل الغرب في جيشهما ، ليحقق له القضاء على المسلمين ، وهو

الهدف الذي أخفقت في تحقيقه الجيوش الصليبية ، ولم يعد للغرب أمل في بلوغه إلا على أيدي التتار خصوم العرب والمسلمين .

وقد بادر " هاتون الأول- "ملك إرمينية و"بوهومونت السادس ، أمير طرابلس ، وأمراء الإفرنج " صور " و"عكا " و"قبرص " بادر هؤلاء جميعاً إلى عقد حلف مع التتار، يقوم على أساس القضاء على المسلمين كافة في آسيا ، وتسليم هؤلاء الأمراء بيت المقدس .

كما يقول " دي مسنيل "في كتابه عن تاريخ التبشير:

"إن النصارى هم الذين حرضو " هولاءكو "على الرحيل عن سورية إلى بلاده ، ومحاربة أخيه هناك ، بسبب موالاته للإسلام ."

وأخيراً انتهى أمل الصليبيين بدخول التتار في الإسلام ، وفي ذلك يقول الأسقف " دي مسنيل " واصفاً هذه الخاتمة :

وهكذا نرى الإسلام الذي كان قد أشرفت قوته على الزوال ، يسترد مكانته ، ويستعيد قوته ، ويصبح أشد خطراً من ذي قبل .

لقد كانت مهمة قطز صعبة جداً ، لأنه كان عليه أن يواجه الخطر الداخلي المتمثل بالارتباك والفوضى في نظام الحكم والصراع على السلطة ، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يواجه الخطر الخارجي المتمثل بالغزو التتري الداهم المتحالف مع الصليبيين في الغرب والشرق معاً .

٦ - التحالف المغولى الصليبي

أرسل كيربوغا جزءاً صغيراً من الجيش إلى داخل فلسطين ، وراح المغول يمارسون ما اعتادوا عليه من نهب وقتل وتخريب طوال الطريق من نابلس إلى غزة ، غير أنه بناء على أوامر كيربوغا لم يهاجم العسكر الشريط الضيق الذي يحتله الصليبيون على الساحل ، الأمر الذي يؤكد التحالف المغولى الصليبي .-

وبرغم ذلك ، يورد المؤرخ دافيد ي. تشانز فى تاريخه أن قائدين صليبيين تصرفا على نحو معاكس لذلك التحالف ، وقاما بمهاجمة بعض المغول فى فلسطين :

وحدث أن قام قائدان صليبيان هما ، جون أمير بيروت وجوليان أمير صيدا بغارات على الأراضى التى احتلها المغول حديثاً ، فأرسل كيربوغا حملة تأديبية على صيدا ونهبوا المدينة وقتلوا سكانها ، وصمدت قلعة البحر وحاميتها . وانطفأت جذوة الحماس المسيحى المعادى للمغول عندما وصلت إلى الصليبيين كلمة بأن هناك جيش مغولى آخر بقيادة بورونداي *Burundai* غزا بولندا . وفى نفس الوقت تقريبا عاد مبعوث الملك الفرنسى لويس التاسع ، ولیم أوف روبروك *William of Rubruck* ، من منغوليا ومعه تقرير كامل عن الغزاة المغول . وبعد أن قرأه البابا ألكسندر الرابع أرسل كلمته إلى كافة أرجاء العالم المسيحى اللاتينى ، مفادها أن المغول وثنون متوحشون شرسون غير موثوق بهم . وإن التحالف معهم سيكون جزاؤه الطرد من الكنيسة .

وهكذا سُويت مسألة التحالف مع المغول بالنسبة للمسيحيين اللاتينيين .

وعن القديس لويس التاسع ملك فرنسا مع المغول ، يقول المؤرخ ستيفن رانسيمن Steven Runciman ، فى تاريخه الموسوعى الممتع المعنون تاريخ الحملات الصليبية A history of the Crusades بشأن التحالف المغولى المسيحى:

"تسلطت على الملك لويس التاسع هواجس منعته من التفاوض أو الإتفاق مع هؤلاء المسلمين الكفرة ، لكن تلك الهواجس لم تكن لتتطبق على المغول الوثنيين ، إذ وصل إلى قبرص اثنان من النساطرة فى ديسمبر ١٢٤٨م ، أرسلهما القائد المغولى أليغيداي، حاكم الموصل من قبل الخان الأعظم ، وأبرزاً رسالة تسهب فى تعاطف المغول مع المسيحية ، الأمر الذى أدخل البهجة على لويس التاسع فأرسل من فوره بعثة من المسيحيين الدومينيكانيين برئاسة أندرو أوف لونيـمو وأخيه وكلاهما يتحدث العربية ، وقد حملت البعثة معها هدايا تتألف من نموذج لكنيسة وبعض الآثار الدينية لمذبحها وغير ذلك ، وقابلت البعثة أليغيداي حاكم الموصل الذى أرسل البعثة إلى منغوليا ، حيث وجدت أن جويوك كبير المغول قد مات وأرملته أوغول تقوم بالوصاية . وقابلت الأرملة البعثة مقابلة كريمة ، غير أنها اعتبرت الهدايا مجرد إتاوة من تابع لسيده . وحالت مشاكل الأسرة المغولية دون إرسال حملة كبيرة الى الغرب ، وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بمجرد خطاب شكر من الأرملة باعتبارها السيد الأعلى لما أبداه تابعها من حرص على خطب ود المغول ، وطلبت إرسال هدايا مماثلة كل

عام . وذهل لويس التاسع من هذا الرد ، إلا أنه لم يفقد الأمل فى التوصل الى تحالف مع المغول يوما ما .

وكان السلطان قطز مدركا لهذا التحالف بين المغول والصليبيين ، غير أنه لم يكن يعبأ بالصليبيين فى هذ المفترق الصعب ، إذ كان على ثقة من أن الصليبيين فى حالة ضعف شديد تحول بينهم وبين مهاجمة المسلمين ، فضلا عن أنهم بتحالفهم هذا الذى بدت بوادره ، قد تركوا للمغول الذين يسالموهم مهمة التصدى لقوة المماليك فى مصر ، ولا شك فى أن النصر سيكون حليفا للمغول كشأنهم فى كافة المعارك التى خاضوها . هكذ فكر قطز ، وهكذا قرر دخول المعركة مع المغول .



الفصل السادس

مَعْرَكَةُ عُيُنِ جَالُوتَ

من معارك المصير الإنساني

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

- ١ - فى الطريق الى الحرب
- ٢ - الخروج من مصر
- ٣ - التوغل داخل فلسطين
- ٤ - سفارة مصرية إلى الصليبيين فى عكا
- ٥ - بداية المعركة
- ٦ - وإسلاماه !
- ٧ - انتصار الإسلام
- ٨ - حكاية كيربوقا المغولى
- ٩ - فى أعقاب المعركة
- ١٠ - اغتيال قطز



١ - فى الطريق الى الحرب

مربنا أن السلطان قطز أخذ بالشورى ولم ينفرد برأيه وحده ، عملا بالآية الكريمة :

"وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ" (آل عمران) (٣: ١٥٩)

ذلك أنه جمع الأمراء والعلماء للتباحث والتشاور بينما انتظر مبعوثو هولاءو يبتسمون

وفى رأس كل منهم أن آخر قوة إسلامية سوف ترسخ لهولاءو ملك الملوك شرقا وغربا .

كما أن قطز ، بعد تطبيق الشورى التى أمر بها الإسلام ، شرع فى إعداد العدة ، وأخذ

بفتوى الإمام العز بن عبد السلام فى توفير الأموال اللازمة فتبرع بماله كله ، وحذا الأمراء

والأثرياء حذوه ، ومن ثم توفرت الأموال اللازمة لجيش قوى ولحرب ضروس ، وفى ذلك

عمل بالآية الكريمة :

"وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" (الأنفال)(٨ : ٦٠)

وبعد إعداد جيش قوى مجهز بكل ما يلزم من سلاح وعتاد ، لم يشأ قطز أن ينتظر

مجئ المغول إلى مصر ، وإنما استرشد بالآية الكريمة :

"وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ"

(الأنفال) (٨ : ٥٨)

وكان يتلمس طريقه من خلال الآيات ، طريق النصر الذى لا يكون إلا من عند الله :

"قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ"

(التوبة) (٩: ١٤)

"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ..."

(البقرة) (٢: ١٩٠-١٩١)

بات مطمئن النفس ، هادئ البال ، واثقا من نصر الله ، وما عليه إلا أن يتوكل على الله وينطلق إلى أعداء الله .

٢ - الخروج من مصر

خرج قطز يوم الإثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م بجيش مصر ومن انضم إليه من عسكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل في القاهرة ، واتجه إلى الصالحية ، حيث كان فيها معسكر مصر الكبير الواقع في شرق الدلتا .

وكان قطز قد أحضر رسل "هولاكو" وأعدمهم ، وبذا أيقن الجنود والناس جميعا أن لا مفر من القتال ، ونودي في القاهرة والفسطاط وغيرهما من أقاليم مصر بالخروج إلى الجهاد ، وكان قطز وهو على رأس الجيش الكبير السائر إلى الصالحية ، يجمع ولادة المدن والقري ويحثهم على دعوة القادرين وتعبئتهم للخروج إلى القتال . ووصل إلى معسكر الصالحية حيث توافدت عليه الحشود ، فجمع الأمراء وكلمهم بالسير إلى خارج مصر لملاقاة المغول . فوافقه البعض ، وعارضه آخرون من الذين ارتأوا البقاء في مصر للدفاع عنها .

وتحدث أمراء الجيش يعرضون ما يرونه ، فقال معارضوا الخروج ممن يفضّلون البقاء في مصر للدفاع عنها وعن أهلهم وذويهم إنهم بذلك يفضلون قرب المسافة من المدد ومن الوطن ، أما إذا كان القتال خارج مصر ، وحدث ما لا تحمد عقباه ، فستكون الشقة بعيدة والمسافات طويلة . وأما المؤيدون للخروج لملاقاة المغول خارج مصر ، فكانوا يرون أن من شأن ذلك أن يجنب مصر ويلات الحرب . فلا خوف على أهلهم وذويهم ، كما أن الخروج يرفع معنويات الرجال ومعنويات المصريين جميعا ، ويوحى للمغول بأن الجيش المصري لا يخافهم فيؤثر ذلك في معنوياتهم . وكانوا يظنون أن المدافع لا ينتصر مطلقاً إلا في نطاق ضيق محدود بعكس المهاجم الذي يؤدي انتصاره إلى إلحاق كارثة بعده . وكان قطز يرى نقل المعركة خارج مصر لأسباب عسكرية خالصة تتصل باختيار أرض المعركة ، فضلا عن الأسباب الأخرى التي أبداها مؤيدو الخروج ؛ فالمغول منذ أن أغاروا على بلاد المسلمين سنة ١٢١٩م لا يلقاهم جيش إلا غلبوه ، وكانوا يقتلون الرجال ويسبون النساء ويسوقون الأسرى وينهبون الأموال .

وانتهى الأمر بتأييد الرأي القائل بالخروج ، فلم يسع البقية المعارضة للخروج إلا أن ترضخ لما ارتآه الجمع .

وجمع قطز قادة العسكر وشرح لهم خطورة ما هم مقدمون عليه من القتال ، ونكّرهم بما وقع من المغول في البلاد التي استولوا عليها من شناعة القتل والتخريب ، وما ينتظر مصر وأهلها من مصير مروّع إذا انتصر المغول ، وحثهم على بذل أرواحهم في سبيل إنقاذ الإسلام والمسلمين من هذا الخطر الداهم ، فوعدوا ألا يدخروا وسعاً في القتال وإنقاذ مصر والإسلام من شر هؤلاء الجلادين المغول .

وهكذا عقد القادة العسكريون بعد إكمال حشد قواتهم العزم على الدفاع عن مصر ، أمام تلك الجحافل التي استولت على أغلب بلاد المسلمين ، فالمغول لم يقصدوا إقليماً إلا فتحوه ، ولا عسكرياً إلا هزموه ، فاستولوا على ثلاثة أرباع العالم الإسلامي ولم يبق خارج حكمهم إلا مصر ، وقد هرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى المغرب . لقد كانت المعنويات منهارة ، فلا عجب أن يبذل قطز كل جهده لرفع معنويات قادته ورجاله ، وأن يستحث القادرين على حمل السلاح للجهاد بأرواحهم ، والقادرين على تقديم الأموال للجهاد بأموالهم ، وأن يحشد كل طاقاته المادية والمعنوية للحرب ولا يُقبل عذر من أحد قادر على الجهاد بالمال والنفس بعد أن ضرب قطز مثلاً شخصياً رائعاً في الجهاد بماله ، وها هو في سبيله للجهاد بنفسه وروحه في سبيل الله .

وكان السلطان قطز ، بعد أن خلع على نور الدين بن أيبك ، قد أرسل إلى الأمراء الهاربين من مصر كي يحضروا ويسهموا في محاربة المغول ، فجاء الأمير بيبرس البندقداري هو وبعض أمراء المماليك ، وكانوا قد هربوا من مصر إلى دمشق لإستيائهم من أيبك . ووضع نفسه تحت تصرف السلطان قطز ، فأنزله السلطان بدار الوزارة ، ورحب به وأحسن معاملته ، وأقطعته قلوب ومناطق الريف المجاورة لها .



٣ - التوغل داخل فلسطين

علمنا أن هولاء أرسل سفارة إلى قطز يطلب الخضوع ، وأن قطز قتل السفراء وتأهب لقتال المغول ، وأنه خرج من القاهرة إلى الصالحية . وقد حدث أن هولاء علم بموت الخان الأكبر مونغا ، وأن الحرب الأهلية بدأت في منغوليا أو كادت ، فسحب جزءا من جيشه باتجاه الشرق ، وكانت القوات التي تركها في سوريا لقائده كيربوغا أقل كثيرا من الجيش الذي جمعه قطز الآن ؛ فبالإضافة إلى المصريين كانت هناك بقايا الخوارزميين وجنود أمير الكرك الأيوبي .

وفي ٢٦ يوليو عبر الجيش المصري الحدود وسار إلى غزة ، وببيرس يقود طليعة الجيش ، وكانت هناك قوة مغولية صغيرة في غزة بقيادة القائد بيدار الذي أرسل إلى كيربوغا يحذره من الغزو المصري .

وجمع كيربوغا جيشه وهو في قاعدته في بعلبك بלבناو وبدأ المسير باتجاه الجنوب منطلقا على الجانب الشرقى لبحيرة طبرية إلى وادي الأردن ، لكن حدثت انتفاضة قام بها مسلمو دمشق أجبرته على التوقف ؛ إذ قام المسلمون بتدمير بيوت المسيحيين وكنائسهم ، فكان من الضروري إرسال بعض فرق المغول إلى دمشق لاستعادة النظام .

وفي الوقت نفسه قاد قطز جيشه وشمالا على الساحل الفلسطيني ، واختار التقدم داخل البلد شمالا لتهديد خطوط مواصلات كيربوغا إذا قرر هذا الأخير التقدم داخل فلسطين .

٤ - سفارة مصرية إلى الصليبيين في عكا

وأرسل قطز سفارة مصرية إلى عكا طالبا الإذن بالمرور خلال الأراضي الفرنجية والحصول على المؤن أثناء السير عند تعذر الحصول على العون العسكرى الضرورى للقتال. وكان الصليبيون فى حالة من الضعف الشديد وليس بمقدورهم بذل أية مقاومة لصد المغول .

واجتمع البارونات فى عكا لمناقشة هذا الطلب ، وكانوا ما يزالون يشعرون بالمرارة حيال المغول الذين خربوا صيدا ونهبوها مؤخرا كما تقدم ، كما أنهم كانت تراودهم الريب والشكوك تجاه تلك القوة الشرقية الوافدة عليهم بما لها من شهرة لاتخفى فى ارتكاب المذابح بالجملة ، بخلاف الحضارة الإسلامية التى ألفوها . وكان أغلب البارونات يرى أن المسلمين أفضل من المسيحيين المحليين الأرثوذكس الذين يحاييهم المغول .

وفى أول الأمر كان البارونات يميلون إلى تزويد السلطان قطز ببعض القوات المقاتلة الاحتياطية . غير أن السيد الأعظم لنظام فرسان التيوتون الدينى العسكرى ، أنوفون سانجرهاوزن *Anno von Sangerhausen* ، حذرهم من التمدادى فى الثقة بالمسلمين ، خاصة إذا ارتفعت معنوياتهم وانتصروا على المغول . وكان للنظام التيوتونى الذى يرأسه ممتلكات كثيرة فى المملكة الأرمنية ، وربما كان السيد الأعظم يؤيد سياسة الملك هيثوم ملك أرمينيا . وكان لكلماته وفصاحته أثرهما على بارونات الصليبيين ، فتقرر رفض التحالف العسكرى مع السلطان قطز ، وقرروا الإلتزام بمرور آمن للسلطان وجيشه فى أراضيهم وإمداده بالتسهيلات والمؤن .

وخلال شهر أغسطس عام ١٢٦٠م ، قاد السلطان قطز جيشه بطول الطريق الساحلى وعسكر لعدة أيام فى بساتين الفاكهة الواقعة خارج عكا . وأرسل بارونات عكا دعوة لعدد من أمراء جيش السلطان لزيارة المدينة كضيوف شرف ، فأذن لهم قطز بتلبية الدعوة ، وكان من بينهم ركن الدين بيبرس . وبعد عودتهم من تلك الزيارة حادث بيبرس السلطان قطز ولفت نظره إلى سهولة الإستيلاء على المدينة بمهاجمتها بغتة ؛ ورفض قطز رفضا قاطعا أن يقدم على مثل تلك الخيانة بما فيها من احتمال انتقام مسيحي قبل أن يتغلب على المغول ، وبذا يخاطر مخاطرة بالغة بجيش المسلمين . أما فرنج عكا فكانوا يمتنون النفس فى أن يفى السلطان قطز بوعده إذا انتصر على المغول بالسماح لهم بشراء حاجتهم من خيول المغول بأسعار مخفضة .

٥ - بداية المعركة

وفى ٣ سبتمبر ، تحول كيريوغا غربا عبر الأردن ثم صعد إلى سهل إزدراليون المرتفع . واتخذ قطز مواقعه فى عين جالوت (حيث تقول التقاليد المحلية إن داود قتل جالوت) . وفى تلك البقعة كان السهل الفسيح يضيق شيئا فشيئا بحيث يبلغ عرضه أقل من خمسة كيلومترات ، ويقع إلى جنوبه جبل جيلبو *Gilboa* وهو جبل شديد الانحدار ، وتحميه من الشمال تلال جالوت . ووضع قطز وحدات من فرسان المماليك فى التلال المحيطة ، بينما أمر بيبرس والطليعة بالتقدم .

وأقبل المماليك على المعركة الوشيكة بمشاعر اليأس ، فليس هناك من بديل عن النصر ، إذ كانت تراودهم هواجس الانتصارات المغولية السابقة ، ولو حصل المغول على انتصار جديد يضيفونه إلى انتصاراتهم ، فحتمًا سينتهى الإسلام كقوة سياسية .

وربما كان مرجع مشاعر اليأس تلك ما كان معروفًا من سياسة جنكيز خان الوحشية الخالية من الرحمة ، لكنها من الناحية الأخرى كانت ترفع من عزيمة المماليك وتقوي تصميمهم على ألا يكون هناك بديل عن النصر ؛ ولذا قام قطز وألقى خطبة انهمرت لها دموع رجاله ، إذ ذكّرهم بطبيعة التتار الوحشية . ولا بديل عن القتال ، إلا موت مفزع يصيبهم وأزواجهم وأولادهم . لقد خلقت كلماته في أرواح المماليك بأس الفولاذ الشديد في قوته وصلابته ، فهبّاهم للمعركة الوشيكة ضد عدو لم يذق طعم الهزيمة .

تقدم بيبرس بطليعة الجيش وعلى رأسها بيبرس ، الذي اشتبك مع قوات كيربوغا وكانت تتجه نحو عين جالوت . وعندما شاهد كيربوغا قوات بيبرس ظن أنها الجيش المملوكي كله ، ففاد رجاله في هجوم عام ، والتحم الجيشان وبدأ أن كلا منهما سيقضى على غريمه ، ولكن بيبرس أمر بالتقهقر ، وتبعه المغول ظانين أنهم قد انتصروا .

وعندما وصل بيبرس بقواته إلى عيون جالوت أمر بالتوقف والإستدارة لمواجهة العدو والهجوم عليه ، وهنا فقط تحقق المغول من وقوعهم في فخ من أفضل تكتيكاتهم هم أنفسهم ، ألا وهو التقهقر المخادع . وفي الوقت الذي عاود فيه بيبرس الإشتباك مع المغول هجم قطز على جناحي المغول باحتياطي فرسانه المختبئين في التلال والمنحدرات ١.

٦ - وا إسلاماه !

والآن ، وقد تحقق كيربوغا من أن المعركة تدور رحاها مع الجيش المملوكى كله ، أمر بالهجوم على ميسرة المسلمين ؛ وصمد الممالك ، ثم مالوا ، ثم صمدوا مرة أخرى ، لكنهم فى نهاية المطاف استداروا تحت هجمات المغول الشديدة .

وبينما كان جناح الممالك يتشقق منذرا بالإنتهيار ، وبدا أن الجيش كله مهدد بالهلاك ، انطلق قطز إلى حيث بلغ القتال أشرس أحواله واعتلى صخرة ، وألقى بخوذته الحديدية على الأرض بحيث يراه الجيش كله ، وصرخ مرددا بصوت جهورى "وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وا إسلاماه !" . فكان لوقفته عارى الرأس ، ولكلماته الثلاث المتعدات ، وهينته ثم اندفاعه إلى قلب صفوف المغول ، وقع السحر ، وبعثت فى جنوده المهتزين روحا جديدة وتلاشى وسواس اليأس ، واختفت أشباح الإنتهيار ، وراح يصرخ فى الجنود كي يثبتوا ويقاتلوا عدو الله ، والتفت إليه قادة الفرق الذين نال منهم الإعياء والإحباط ، فرأوا سلطانهم بوجهه المتقد وقد ألقى بنفسه فى ساحة القتال يضرب بسيفه ويخترق صفوف التتار وقد خلف وراءه بضع عشرات من جثث الأعداء. فذهلوا لشجاعته ، وعلى الفور حذوا حذوه مما رفع من معنويات جيش المسلمين .

وعاود المسلمون بطشهم بعدوهم ، وصمد جناح الميسرة . ولمّا قويت صفوف الميسرة ، قاد قطز هجوما مضادا اكتسح فيه القوة المهاجمة .



٧ - انتصار الإسلام

ولم يمض وقت طويل قبل أن تميل الحرب إلى جانب المسلمين ، وسرعان ما تبعثر الجيش المغولي ، وقد قتل الكثير من جنوده أو أسروا أو ولوا الأدبار بعد ما قتل قائدهم وأسر ابنه . ولم يسلم أحد من المغول من القتل أو الأسر، فمن نكص على عقبيه وهرب قتله أهل الشام .

وعندما وصلت تلك الأنباء المجيدة مدينة دمشق وما حولها ، ابتهج المسلمون واستعادوا شرفهم الجريح وجناحهم المهيض ، وراحوا يهاجمون المغول . كما هاجموا من كان ظهيرا لهم من الحشاشين المغلوبين على أمرهم .

رسالة الملك المظفر قطز إلى صاحب اليمن

الملك المنصور يبشره بانتصاره العظيم على المغول

من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر

أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالی المولوي السلطانی
الملكی المنصوري وأعلى مناره وضاعف اقتداره . نعلمه أنه لما كان
النصف من شهر رجب الفرد فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء
الدين .

من كل مَنْ لولا تسعُّرُ بأسه لاخضر جودا في يديه الأسمر

فصدرت هذه التهنة إليه رواية للصدق عن اليوم المحجل الأغر:

يوم غدا بالنقع فيه يهتدي من ضل فيه بأنجم المران

ففى أذن الدهر من وقعه صمم ، وفى عرنين البدر من نغمه شَمَم .
ترفعه رواة الأسل عن الأسنة ، ويسنده بحر العوالى عن بحر الأعنة
أما النصر الذي شهد الضربُ بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتر
— خذلهم الله تعالى — استطالوا على الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ،
واستجدوا بقبائلهم على الإسلام .

سعى الطمعُ المردى بهم بحتوفهم ومن يُنْسِكُنْ ذيل المطامع يعطب
فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بالعرض ، وقد
أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ، وعاد كيدهم فى
نحورهم ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا . وكفى الله
المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزاً .

راموا الأمور فمذ لاحت عواقبها بضد ما أملوا فى الورد والصدر
ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة عليهم شرعا فى الورد والصدر
وأضعف الرعب أيديهم قطعهم بالسهرية مثل الوخز بالإبر
لا جرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون .
تدرعوا بدروع البغي سابغة والمرء يحصد من دنياه ما زرعاً

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانهم فى بحار
الآمال ، فتلك آمال خائبة ومراكب للظنون عاطية ، وأقلعوا فى البحر
بمراكبه ، والبر بمواكبه ، وساروا وللشيطان فيهم وساوس ، تغرهم
أمنية الظنون الحواس ، فما وسوس الشيطان كفرا إلا وأحرقه الإيمان
بكوكب ... هذا وعساكر المسلمين مستوطنة فى مواطنها ، جاذبة عقبانها
فى وكور ظباها ، رابضة آسأداها فى غيل إقناها ، ما تزلزل لمؤمن قدم
إلا وقدم إيمانه راسخة ، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها
ناسخة ، ولا عَقِدَتْ برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان . ولا نطق كاتب إلا

وأخرسه القرآن . ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات .

ينام بإحدى مقتلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الطرفين ، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً ، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً ، حتى صارت المفاوز دلاساً ، ومراتع الظبا للظبا عراصا ، واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصا . ورأي المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصا . فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام ، ولا غمامة إلا نقع ، ولا وبل إلا سهام ، ولا مدام إلا دماء ، ولا نغم إلا صهيل ، ولا معربد إلا قاتل ، ولا سكران إلا قتيل حتى صار كافور الدين شقيقاً ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقاً ، وضرب النقع في السماء طريقاً ، وازدحمت الجناث في الفضاء فجعلته مضيقاً . وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد .

(صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ ، ٣٦٠-٣٦٢)



٨ - حكاية كيربوقا المغولى

ومما يرويه المؤرخون أن كيربوقا عندما أيقن أنه يواجه مؤففاً يتداعى ، وعندما اقترح أحد أعوانه الإنسحاب ، أجاب باقتضاب :

"علينا أن نموت هنا ، هذه هى النهاية . ويعيش الخان ويسعد ."

ويروى المؤرخون كذلك أنه برغم الضغط المملوكى الشديد واصل كيربوقا دفع رجاله . ثم أصيب حصانه بسهم ووقع على الأرض . وأسرت جماعه من المماليك كانت على مقربة منه وساقته إلى السلطان وسط صليل السيوف .

ويسترسل المؤرخون سردهم لتفاصيل غاية فى الدقة أن قطز نظر إليه بوجهه السدى غطته حبات العرق وقال له :

"ها أنت قد وقعت أخيراً بعد أن أسقطت الكثير من الملوك والأسر

الحاكمة ."

وكان كيربوقا ما يزال فى حالة من التحدى ، فرد قائلاً :

"إن قتلتنى ، وسمع الخان هولاكو بموتى ، سوف ترتجف الأرض

من أنربيجان إلى مصر تحت حوافر خيول المغول ."

وأراد كيربوقا أن يلحق الإهانة بعدوه فأضاف:

"طوال حياتى وأنا خادم للخان ، ولست مثلك أقتل أسىدى ."

فأمر قطز بقتل كيربوقا وإرسال رأسه إلى القاهرة كإثبات للنصر الإسلامى .

وفى رواية أخرى :

"ظل كيربوغا يهاجم يمينا وشمالا بكل ما أوتى من حماس، وشجعه البعض على الهرب ، لكنه رفض قائلا : "لا مهرب من الموت ، والأفضل أن أموت شريفا عن أن أهرب خزيا . وفى نهاية المطاف فإن واحدا من هذا الجيش ، صغيرا كان أو كبيرا ، سوف يصل إلى بلاط الخان ويبلغه أن كيربوغا الذى لم يشأ أن يعود مخزيا ، قد بذل حياته فى المعركة . ولن يحزن الخان على موتى عسكر المغول . وسيخيل أن زوجات عساكره لم يحبلوا طوال عام وأن جياد قطعانه لم تهلك . إن مصدر سعادتى هو الخان ، ليسعد ويهنا ، وكل خسارة يمكن تعويضها . إن حياة أو موت الخدم من أمثالنا لا يهم . " ورغم أن الجنود تركوه ظل يحارب فى المعركة كالف رجل ، وفى النهاية سقط جواده ووقع كيربوغا فى الأسر .

واقْتَدِ كيربوغا مكبلا بالأصفاد الى قطز الذى قال له : "أيها القمى ، لقد سفكت دماء كثيرة ظلما ، واجهزت على أبطال ونبلاء بتأكيدات زائفة ، وقضيت على عروش بوعود هشة ، والآن وقعت أنت نفسك أخيرا فى الفخ ."

وعندما سمع ذلك المقيد فى الأصفاد تلك الكلمات ، زمجر كفيل هائج ورد قائلا:

"أيها المغرور ، لا تغتر بنصرك اليوم . فإن قتلتنى ، فإننى اعتبر أن تلك إرادة الله ، وليس إرادتك . ولا تغتر بهذه الحادثة ولو للحظة ، فعندما تصل أخبار موتى إلى الخان هولاكو ، ستضطرم بحار غضبه ، وستهتز الأرض من أذربيجان وحتى بوابات مصر تحت حوافر خيول المغول . وسوف يأخذون رمال مصر فى كياس ألجمة خيولهم ، فلدى

الخان هو لآكو ثلاثمائة ألف خيال مثل كيربوغا ، وتستطيع أن تقضى على واحد منها . "

فاقل له قطز :

"لا تتحدث بمثل هذا الفخر عن خيالة الخان ، فإن له حيلهم وخداعهم ، وهم خلو من الرجولة التي كان يتصف بها رستم ."

فرد كيربوغا قائلا : " لقد عشت طوال عمرى خادما لسيدى ، لا كمترد ، ومغتال لسيدى من أمثالك . لتقضى عليّ بأسرع ما يمكن . " فأمر قطز بفصل رأسه عن جسده .
وفى رواية أخرى أن كيربوقا أرسل رسالة شفوية لهولاكو أثبتت الهذاني كالاتى :

رسالة كيربوقا الشفهية والأخيرة لهولاكو

لما هزم جيشه فى عين جالوت وقيل أن يُقتل

لا مفر من الموت هنا . فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان . وسيصل رجل واحد ، صغيرا أو كبيرا ، من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامى قائلا : إن كيربوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلفه الخجل فضحى بحياته الغالية فى سبيل واجبه ، وينبغى ألا يشق على خاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول ، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاما واحدا ، وأن جباد قطعانه لم تلد المهور . فليدم إقبال الملك . وما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة فإنها تكون عوضا لكل مفقود ، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير .

وننظر إلى كل تلك الروايات ببالغ الريبة ، بل والإنكار . فكيف حصل الهمداني على رسالة شفهية حملها مجهول ، بلغة مغولية بطبيعة الحال ، هذا إن كانت هناك رسالة أصلا ؟ وكذلك الحال فيما يتعلق بالروايات الأخرى ، لا شك أن تلك الروايات إنما هي محض اختلاق وتصور خيال ، حتى وإن ردها المؤرخون الواحد تلو الآخر ، سواء مؤرخو العرب أو الغرب . فلم يكن كيربوغا يعرف من اللغات سوى المغولية ، وليس في الإمكان وجود مترجم في خضم معركة حمى وطيسها ، يدون في قرطاس ، أو يحفظ في صدره ما يقوله كيربوغا عن موته السعيد ، وحتى لو افترضنا وجود المترجم ، فلم يكن بجوار كيربوغا مؤرخ يدون الكلمات في قرطاس ، وفي أتون معركة صاخبة تتعالى فيها صرخات الجرحى وصلصلة السيوف وصيحات المهاجمين وصهيل الخيول . فلا بد إذن أن واحدا من المؤرخين تلبسه الخيال في لحظة حماس ، وراح يصيغ ذلك الحوار المصطبغ بالوطنية المغولية المثالية ، وبذل الذات من أجل أن يعيش الخان ويسعد ، لا ندرى من الذي رواه ، وأغلب الظن أن الذي اخترعه أحد المؤرخين الغربيين من الحاقدين على الإسلام . وكذلك الحال فيما يخص الحوار الذي دار بين قطز وكيربوغا ، ذلك أن كيربوغا لا يعرف العربية ، ولا قطز يعرف المغولية ، فلا بد إذن من وجود مترجم بينهما في تلك اللحظة الصاخبة والمعركة على أشدها . من الذي كان يقوم بالترجمة بين قطز وكيربوغا ومن الذي كان يستمع ويدون ما كان يقال ، ثم يروي بدوره فيسمعه آخرون ، يقصونه بدورهم على غيرهم ، والمعروف أن لكل قصاص ألفاظه ، بل ومبالغاته وتحويراته بما يتفق ومشاعره الحماسية أو غير الحماسية .

وفضلاً عن ذلك ، من المعروف أن قطز لم يقتل أحداً من أسياده ، وخاصة سلفه الشاب على بن أيبك ، وهو (أي أيبك) السلطان المملوك الوحيد الذي قُتل مع زوجته شجرة الدر أثناء أن كان كيربوغا على قيد الحياة ؛ وإنما حدثت بعد عين جالوت صراعات دموية على السلطنة فيما بين المماليك ، وكان كيربوغا قد مات قبل أن يُشاع قتل سلاطين المماليك بعضهم بعضاً . وإن ، فإن هذه الحقيقة في حد ذاتها تجعلنا نشير بأصابع الإتهام إلى الحاقدين على الإسلام ، بأنهم اخترعوا اختراعاً .

ونعود إلى معركة عين جالوت ، فنعلم أنه بذهاب القائد ولى المغول الألبار هاربيين ، انطلقوا لايلون على شئ يطاردهم فرسان من المماليك طوال مسافة ١٢ كيلومتراً حتى مدينة بيسان . وراحوا يعدون العدة لمواجهة مطارديهم من فرسان المماليك . وكانت نتيجة الإشتباك هزيمة القوة المغولية ، وأما من بقى على قيد الحياة فقد عبر نهر الفرات هارباً بحياته .

٩ - فى أعقاب المعركة

ويستطرد الشيخ قطب الدين قائلاً :

انتصر المسلمون ، وهزموا المغول هزيمة ماحقة ، وقتل قائدهم كيربوغا . ويقال إن الذي قتله هو الأمير جمال الدين أقوش الشمسي ، وراح المسلمون يطاردون المغول الهاربين ، يقتلونهم حيث وجدوهم ، وكان فى أثرهم ببيرس البندقاري وجماعة من الشجعان يقتلونهم فى

كل مكان ، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، أما المغول الذين كانوا في دمشق ، فقد هربوا ، وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رمضان وكان مع جيش قطز المنتصر الملك المنصور صاحب حماه ، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، وأسر من المغول الفارين الملك السعيد بن العزيز بن العادل ، وأستأمن الأشرف صاحب حمص الذي كان مع التتار وقد جعله هولاءكو خان نائباً على الشام كله ، فأمنه الملك المظفر، ورد إليه حمص ، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها .

ويسترسل الشيخ قطب الدين قائلا :

فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ، ويستفكّون الأسارى من أيديهم ، وجاءت بذلك البشارة والله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاءت بها دق البشائر من القلعة وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً ، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون .

فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها فاحترق دور كثيرة إلى النصارى ، وملا الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، وأحرق البعض كنيسة اليعاقبة ، وهمت طائفة بنهب اليهود . فقيل لهم إنه لم يكن منهم من الطغيان كما كان من عبدة الصليبان ، وقتلت العامة وسط الجامع

شيخاً رافضياً كان مصانعاً للتتار على أموال الناس يقال له : الفخر محمد بن يوسف بن محمد الكنجي ، كان خبيث الطوية مشرقياً ممالئاً لهم على أموال المسلمين قبحه الله . وقتلوا جماعة مثله من المنافقين فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . وقد كان هولاء أرسل تقليداً بولاية القضاء على جميع المدائن : الشام ، والجزيرة ، والموصل ، وماردين ، والأكراد وغير ذلك ، للقاضي كمال الدين عمر بن بدار التفليسي .

وقد كان نائب الحكم بدمشق عن القاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سني الدولة من مدة خمس عشرة سنة ، فحين وصل التقليد في سادس عشرين ربيع الأول قرئ بالميدان الأخضر فاستقل بالحكم في دمشق ، وقد كان فاضلاً . فسار القاضيان المعزولان صدر الدين بن سني الدولة ومحبي الدين بن الزكي إلى خدمة هولاءكو خان إلى حلب ، فخضع ابن الزكي لابن سني الدولة وبذل أموالاً جزيلة ، وتولى القضاء بدمشق ورجعا .

فمات ابن سني الدولة ببعلبك ، وقدم ابن الزكي على القضاء ومعه تقليده . وخلعة مذهبة فلبسها وجلس في خدمة إيل سنان تحت قبة النسر عند الباب الكبير ، وبينهما الخاتون زوجة إيل سنان حاسرة عن وجهها . وقرئ التقليد هناك والحالة كذلك ، وحين ذكر اسم هولاءكو نثر الذهب

والفضة فوق رؤوس الناس ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، قبح الله ذلك
القاضي والأمير والزوجة والسلطان .

(قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان ج / ص : ٢٥٧/١٣)

وذكر أبو شامة : أن ابن الزكي استحوذ على مدارس كثيرة في منته
هذه القصيرة ، فإنه عزل قبل رأس الحول ، فأخذ في هذه المدة
العذراوية والسلطانية والفلكية والركنية والقيمرية والعزيرية مع
المدرستين اللتين كانتا بيده التقوية والعزيرية . وأخذ لولده عيسى تدريس
الأمينية ومشخة الشيوخ ، وأخذ أم الصالح لبعض أصحابه وهو العماد
المصري ، وأخذ الشامية البارانية لصاحب له واستتاب أخاه لأمه شهاب
الدين إسماعيل بن أسعد بن حبيش في القضاء وولاه الرواحية والشامية
البرانية .

قال أبو شامة : مع أن شرط واقفها أن لا يجمع بينها وبين غيرها .
ولما رجعت دمشق وغيرها إلى المسلمين ، سعى في القضاء وبذل
أموالاً ليستمر فيه وفيما بيديه من المدارس ، فلم يستمر بل عزل
بالقاضي نجم الدين أبي بكر بن صدر الدين بن سني الدولة ، فقري
توقيعه بالقضاء يوم الجمعة بعد الصلاة في الحادي والعشرين من ذي
القعدة عند الشباك الكمالي من مشهد عثمان من جامع دمشق .

ولما كسر الملك المظفر قطز عساكر التتار بعين جالوت ساق وراءهم
ودخل دمشق في أبهة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديداً ودعوا له دعاء

كثيراً، وأقر صاحب حمص الملك الأشرف عليها ، وكذلك المنصور صاحب حماه ، واسترد حلب من يد هؤلاء ، وعاد الحق إلى نصابه ومهد القواعد . وكان قد أرسل بين يديه الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ليطرد التتار عن حلب ويتسلمها ووعد بنيابتها ، فلما طردهم عنها وأخرجهم منها وتسلمها المسلمون استتاب عليها غيره وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل . وكان ذلك سبب الوحشة التي وقعت بينهما واقتضت قتل الملك المظفر قطز سريعاً ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

فلما فرغ المظفر من الشام عزم على الرجوع إلى مصر واستتاب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير والأمير مجير الدين بن الحسين بن آقشمر ، وعزل القاضي ابن الزكي عن قضاء دمشق ، وولي ابن سني الدولة ثم رجع إلى الديار المصرية والعساكر الإسلامية في خدمته ، وعيون الأعيان تنتظر إليه شزراً من شدة هيئته .



١٠ - اغتيال قطز

أورد المؤرخ العربي أبو الفدا في تاريخه ، وكذلك المقرئى فى (السلطين) ، الجزء الأول: أن السلطان قطز ، بعد انتصاره الكبير على المغول فى عين جالوت ، انطلق فى رحلة العودة الى مصر نكلله أكاليل الغار والمجد . وكان قطز يرتاب فى أكثر قواده كفاءة وهو بىرس، وظلت الريبة تتزايد فى صدر قطز يوما بعد يوم . وكان بىرس قد طلب أن ينصب واليا على حلب ، لكن قطز رفض طلبه بصورة جافية ، مما أثار حفيظة بىرس ، لكنه لم ييدها ، وكنها فى نفسه وانتوى الإنتقام من السلطان قطز.

وفى يوم ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م جاءت بىرس فرصته ، إذ كان الجيش المنتصر على المغول يقترب من حافة الدلتا ، وذهب قطز للتريض وصيد الأرناب البرية ، ومعه بعض خاصته من أصدقائه وأمرائه وفيهم بىرس . وعندما ابتعدوا عن المعسكر بمسافة غير قصيرة، اقترب أحد الأمراء من السلطان ، تدل هياته على أنه سىطلب شيئا من السلطان قطز، وبينما كان ممسكا بيد السلطان متهيئا لتقبيلها ، انقض عليه بىرس من الخلف وطعن قطز بسيفه فى ظهره . وانطلق المتآمرون على جيادهم إلى المعسكر ليعلنوا نبأ مصرع السلطان . وكان أقطاي ياور السلطان فى الخيمة الملكية ، فدخل عليه المتآمرون وأعلنوه بأنهم قتلوا السلطان ، فسأل أقطاي من فوره أئعم الذى ارتكب القتل ،

فاعترف ببيرس بأنه هو الذى قُتل ، فدعاه أقطاي إلى الجلوس على عرش السلطان ، وكان أول من قدم له فروض الولاء والطاعة ، وحذا قادة الجيش كلهم حذوه معربين لبيرس عن فروض الولاء والطاعة . وهكذا عاد ببيرس إلى القاهرة سلطانا .

ولقد لصقت بالمماليك هذه الصفة ، الفوز بالسلطنة عن طريق الإغتيال ، أو بالتعبير الآخر الأكثر شيوعا ، عن طريق قانون "البقاء للأصلح" . ويكاد يجمع الكافة ، شرقا وغربا ، على استنكار تلك الطريقة الأثمة فى القفز إلى كرسي الزعامة ، ويزدرونها ، ويعتبرون المماليك قتل مجرمين آثمين وحوش غير متحضرين .

وبينما لا ندافع عن أسلوب التآمر والإغتيال ، نلفت النظر إلى أن المماليك بتصرفهم هذا لم يخترعوا جديدا ، ولم يستحدثوا هذه الوحشية وذلك الغدر ببعضهم البعض . ذلك أن الأثرة والأنانية وحب الغلبة كامنة فى الإنسان منذ أن قتل أحد ولدى آدم عليه السلام أخاه غيرة وحسدا وحقدًا . ولو أننا استعرضنا مسيرة الإنسان على مر التاريخ لوجدنا الكثير من الأمثلة على ذلك .

وتاريخ الإمبراطورية الرومانية حافل بتلك الأمثلة ، أبرزها تأمر بروتوس ورفاقه وقتلهم يوليوس قيصر .

بل إننا لو سبرنا أغوار الدولة الإسلامية ذاتها لوجدنا الآتى :

♣ تآمر معاوية بن أبي سفيان وقتل الإمام الحسن بن علي بالسم ، ناكثا ما اشترطه على نفسه .

♣ وتآمر يزيد بن معاوية وقتل الإمام الحسين بن علي شر قتلة ومثل به .

♣ وتآمر سليمان بن عبد الملك وقتل زعيم العلويين ، أبو هاشم بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، بعد أن دعاه وأعطاه الأمان ودس له السم في طعامه .

♣ وتآمر هارون الرشيد نفسه وقتل امام العلويين يحيى بن محمد بعد أن أعطاه الأمان .

... وقائمة تآمر القادة واغتيالهم لخصومهم غدرا وغيلة طويلة ، ولن نتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وربما كان آخر ما وصل إلينا من غدر الإنسان التآمر على جون فيتزجيرالد كنيدي وقتله ، ولو أن المتآمرين لا يزالون مجهولين ، وأغلب الظن أنهم أحكموا تآمرهم بحيث دفنت أسماؤهم مع ضحيّتهم في مقبرته .

ونحرص مرة أخرى على التذكير بأننا لا ندافع عن أسلوب التآمر والإغتيالات ولا نؤيده ، وإنما نحرص بالأحرى على التذكير بأن المماليك لم يأتوا بجديد ، وبدلا من ازدرائهم وتحقير أفعالهم ، يكفي أن نلقى عليهم تلك النظرة المشفقة ، ثم نلتفت إلى انجازاتهم الرائعة .



الفصل السابع

نظرات

أولا : صدى الإنتصار فى عين جالوت

ثانيا : المغول تحت المجهر

١ - الجندي المغولى

٢ - نظام الإتصالات

٣ - نظام الإستخبارات

٤ - الشراسة والوحشية

٥ - فى ميدان القتال

٦ - تصدع الجغرافية السكانية



صدى الانتصار فى عين جالوت

يجمع المؤرخون على الأهمية البالغة لمعركة عين جالوت . ابتهج لها الشرق والمسلمون وتنفسوا الصعداء بعد أن انزاح عن صدورهم هذا الشبح المغولى المخيف ، وتناولها الغرب باهتمام شديد . وكنا نود أن نستعرض ما قاله الغربيون عن هذه المعركة ، لكننا آثرنا أن نثبت هنا أبرز المؤرخين الغربيين المحدثين لحديثه ونظرتيه الثاقبة وتحليلاته التى قلما يجانبها الصواب ، بالإضافة إلى مؤرخ غربى آخر :

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة فى التاريخ . ومن الحق أن الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل تسببت فى أن يصبح الجيش المغولى فى سوريا من الضالة بحيث لم يقدر - فى غيبة الكثير من الحظ الحسن - على الإضطلاع بإخضاع الممالك ، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثة ، لأمكن استعواض الهزيمة ؛ غير أن تصارييف التاريخ قد حالت دون تحويل حكم التاريخ المتخذ فى عين جالوت تحويلا معاكسا . لقد كان النصر المملوكى إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قُدِّرَ للمغول أن يتوغلوا داخل مصر ، لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين فى آسيا غيرة بصورة فائقة بحيث تستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر لهم أن يكونوا الجنس الحاكم . ولو قدر لكثيربوqa المسيحى الانتصار ، لكان فى ذلك تشجيع لتعاطف المغول حيال المسيحيين ، ولأصبح المسيحيون الآسيويون فى مركز القوة للمرة الأولى منذ الهرطقات الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العيب أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك ، ولا يستطيع المؤرخ إلا أن يقص

ما قد حدث فعلا. لقد جعلت عين جالوت من سلطنة مصر المملوكية القوة الرئيسية فى الشرق الأدنى للقرنين التاليين ، وحتى بروز الإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوطنيين فى آسيا؛ ذلك أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العنصر المسيحى فإنها سرعان ما حفزت المغول الباقين فى غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام . كما أسرعت بزوال الدويلات الصليبية ؛ إذ أن المسلمين المنتصرين ، كما تتبأ السيد الأعظم للنظام التيوتونى ، باتوا تواقين إلى الإنتهاء من أعداء العقيدة .

وبعد خمسة أيام من الإنتصار فى عين جالوت ، دخل السلطان دمشق . فأما الأشرف الأيوبى الذى نبذ القضية المغولية فقد أعيد تنصيبه فى حمص ؛ وأما أمير حماه الأيوبى الذى هرب إلى مصر فقد أعيد إلى إمارته ؛ واستُعيدت حلب فى غضون شهر . وأما هولاكو ، الذى تملكه الغضب لفقدانه سوريا ، فكان فاقدا الحيلة إلى أن يعود النظام فى قلب الإمبراطورية المغولية . ولقد أرسل الجنود لإستعادة حلب فى شهر ديسمبر ، لكنهم أجبروا بعد أسبوعين على الإنسحاب بعد أن ذبحوا عددا كبيرا من المسلمين انتقاما لموت كيربوغا . وكان ذلك هو كل ما استطاعه هولاكو للإنتقام لصديقه المخلص .

(من ترجمتنا لتاريخ الحملات الصليبية ، تأليف السير ستيفن رانسيمان)

أما المؤرخ التالى فهو دافيد ي. تشانز *David W. Tschanz* فيقول :

كان الصدام بين المغول والمماليك فى عين جالوت أحد أهم المعارك فى تاريخ العالم . ومع ذلك ، فإنها نادرا ما يصنفها التاريخ الغربى على هذه النحو بل حتى لا يُسمع لها ذكر وإن كانت للحضارة الغربية على جانب من الأهمية كمَاراتون *Marathon* وسلاميس *Salamis* وليبانتو *Lepanto* وتورز *Tours* .^(١)

(١) (المؤلف):

معركة ماراتون *The Battle of Marathon* : سنة ٤٩٠ قبل الميلاد ،

التي انتصر فيها الإغريق على الفرس .

(١) معركة سلاميس *The Battle of Salamis* : سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، وهزم

فيها أسطول أغريقى قوة بحرية فارسية ضخمة فى الممرات البحرية فى سلاميس بين جزيرة سلاميس وميناء بيرىوس الأثينى .

(٢) معركة ليبانتو *The Battle of Lepanto* : يوم ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١م التي

هُزم فيها الأتراك العثمانيون فى ليبانتو باليونان ، فى البحر الأدرياتيكي ، أمام تحالف البنادقة مع القوات المسيحية التابعة للبابا بيوس الخامس و فيليب الثانى ملك أسبانيا .

(٣) معركة تورز *The Battle of Tours* : وتسمى أيضا معركة بواتييه

(أكتوبر ٧٣٢م) ، انتصر فيها تشارلز مارتل الحاكم الفعلى للممالك الفرنجية على المسلمين الغزاة الآتين من الأندلس بقيادة عبد الرحمن والى قرطبة .



ويسترسل دافيد ي . تشانز قائلا :

" فلو أن المغول نجحوا فى هزيمة مصر لاستطاعوا أن يتدفقوا
عبر شمال أفريقيا حتى مضيق جبل طارق ، ولباتت أوروبا فى حلقة
حديدية تحيط بها من بولندا وحتى البحر المتوسط ، ولكان بإمكان
المغول الغزو من نقاط عديدة من غير المحتمل أن كان هناك أي جيش
أوروبي قادر على صدّهم ."

ونقول إن المعارك التى ذكرها ذلك المؤرخ ، ماراثون *Marathon* وسلاميس
Salamis وليبانتيو *Lepanto* وتورز *Tours* وغيرها من المعارك ، إنما هى معارك
عادية شهدها تاريخ الإنسانية كما شهد غيرها ، ومر بها مرور الكرام ، لم يعط لها التاريخ
بالا ولا اهتم بها إلا بقدر أحداث الظروف التاريخية التى حدثت فيها . ولا شك فى أنها
معارك لم يكن لها تأثير فى مصير الإنسانية وحضارتها بنفس قدر تأثير معركة عين جالوت
فى مسيرة الإنسان وحضارته . بل إن وضع معركة عين جالوت موضع المقارنة مع ما
ذكره المؤرخ من معارك فيه ظلم كبير وانتقاص من الأهمية البالغة ليوم عين جالوت .
ومهما يكن الأمر ، فإن المؤرخ يعترف فى نهاية تعليقه بمدى الخطر المحدق بأوروبا كلها لو
أن المغول كسبوا هذه المعركة .



المغول تحت المجهر

١ - الجندي المغولي

قلنا إن المغول كانوا أشبه بقوة من قوى الطبيعة ، لا يوقفها شئ ، تدمر وكأنها تعاقب .
وفى أقل من جيلين كانوا يسيطرون على جزء كبير من العالم يمتد من وطنهم الضئيل
المهمل وحوافر خيولهم تدق كل الأراضى من كوريا إلى بولندا . ولو أردنا أن
نعرف السر فى سرعة هذا الإنتشار الواسع لعلمنا أن مرجع ذلك يكمن فى أعلى مستويات
التدريب والنظام والإستطلاع والتعبئة والإتصالات ، على نحو لم يسمع به أحد فى أي جيش
آخر فى اية فترة تسبق القرن العشرين .

فكان كل الرجال الذين تزيد أعمارهم على أربعة عشر عاما يجندون فى الخدمة
العسكرية ، تاركين قطعانهم وبيوتهم ، على أن تلحق بهم زوجاتهم وأطفالهم مع قطعانهم .

ودائما ما كان المعسكر يضرب على نسق معياري ، ويجرى تجميع العسكر فى
وحدات تتألف كل وحدة من عشرة رجال ، ويطلق على وحدة العشرة (أربان arban)،
وكل عشرة أربان تؤلف (ياجون jagun) وهكذا حتى يصل عدد العسكر إلى مائة ألف وهى
فرقة (أوردو ordu) .

وكانت التدريبات على الحرب وركوب الخيل ، والرمي بالسهم ، شيئا أساسيا فى
تكوين الأسلوب المغولى فى القتال ، وكان جنود المغول غاية فى الانضباط والنظام فى وقت
كانت فيه أغلب الجيوش تتألف من غوغاء شبه نظامية.

وملابس الجندي المغولي خفيفة جدا ، وارتحاله خفيف جدا كذلك ، فكان الجندي يرتدى قميصا داخليا حريريا ومن فوقه سترة ، وزيادة على ذلك ، كان أفراد الخيالة يُقَالُو المهام يرتدون سلسلة مدرعة وقشور درعية حديدية مغطاة بالجلد . ومع كل رجل ترس مغطى بالجلد وخوذة إما جلدية أو حديدية بحسب رتبة العسكرية . وكانت الأسلحة تتألف من قوسين مركَّبين وستين سهم . وكانت الخيالة الخفيفة تحمل سيفا قصيرا ورمحين أو ثلاثة ، بينما كان جندي القوة الأساسية مجهز بسيف معقوف وقضيب شائك ورمح طوله أربعة أمتار . كما كان لدى الجنود ملابس وأوعية للطهي ولحوم مجففة وماء وأشياء أخرى أصغر . وأما سرج الفرس ، فكان مصنوعا من أحشاء البقر ، ولأنه لا يتأثر بالماء وقابل للنفخ فمن الممكن استعماله للطفو عند عبور الأنهار . وعلى ذلك ، كان باستطاعة الفارس خفيف الأحمال أن يقطع مسافة مائة ميل في اليوم .

٢ - نظام الإتصالات

ومن بين أكبر المميزات التي كان المغول يتصفون بها ، نظام للإتصالات بالغ الكفاءة والتنسيق يقوم على الرايات والمشاعل والخيالة من حاملي الرسائل لمسافات شاسعة دائما ما كانوا يستبدلون الجياد أثناء عدوها . ومن ثم ، استطاعت جميع الوحدات المغولية أن تبقى على اتصال وثيق مع بعضها البعض ، وتحت سيطرة قائد واحد ، من خلال تنظيم حاملي الرسائل ، حتى وإن كانت المسافات تزيد على آلاف الأميال . ولم يتحقق هذا المستوى من تكامل الحركة والإتصال مرة أخرى إلا في الصورة المركبة للآليات المتحركة والإتصالات اللاسلكية في الحرب العالمية الثانية .

٣ - نظام الإستخبارات

ولقد ركز جنكيز خان نفسه على أهمية جمع المعلومات المخبرانية . فكان قبل أن يشرع فى حملة عسكرية يجمع من التجار والمسافرين والجواسيس معلومات دقيقة عن الأحوال فى بلد العدو ، والطرق ، والجسور ، وكانت الشوراع الأخرى دائمة الصيانة لضمان سرعة الحركة والإتصال . وكان يرسل فرق الكشافة إلى مسافات تصل أحيانا إلى ألف ميل كي يرسلوا إليه تقارير منتظمة .

وكان الجيش المغولى ، أثناء تقدمه ، يجبر شباب الريف على الإنخراط فى جماعات عمل لنقل المؤن والحفاظ على الطرق العامة مفتوحة ، وكان يستخدم العمال المهرة أو المهندسون من بين هؤلاء الشباب فى تشييد وصيانة آلات الحصار .

٤ - الشراسة والوحشية

وكان الجانب الأكثر شراسة فى السياسة العسكرية المغولية هو تعمد اللجوء إلى الإرهاب لتخويف الأعداء كي لا يصبح هناك إلا الإستسلام . فإذا ما استسلم العدو دون مقاومة ، عادة ما يفوز بالسلامة ؛ وإذا ما رفضت الحامية الإستسلام ، فإنها تحاط بسور من المتاريس وبخندق يتولى السجناء العبيد عمليات بنائهما . ثم تقصف المناجق الأسوار إلى أن تحدث فيها ثغرة ، وعندئذ يملأ المجرى المائي بالسجناء إجبارا ويساقون كطليعة للهجوم، ثم يتبعهم المغول من ورائهم .

وفى حالة الإستيلاء على مدينة ما ، يجبر سكانها على الخروج منها والتجمع فى أرض فضاء خارج الأسوار ، ثم يجرى نهب المدينة . وإذا ما قام السكان عموما بتحصين المتاريس ، يجرى قتل الكل رجالا ونساء وأطفالا ، وفى حالة واحدة على الأقل كانت حتى القطط والكلاب تقتل كذلك . وكانت تلك السياسة الشرسة تستهدف المدن التالية بطول الطريق حتى تستسلم بدلا من أن تقاوم .

٥ - فى ميدان القتال

وكانت الإستراتيجية المغولية المعتادة فى ساحة القتال القيام بهجوم مباشر سريع ، وبالنظر إلى أن سرعة تحركهم وأنظمة جمع المعلومات الإستخباراتية كانت تفوق كثيرا خصومهم الذين كانوا عادة من الإقطاعيين ، فقد كان المغول قادرون عادة على التركيز بصورة أسرع على إرباك عدوهم . وإذا ما فشلت تلك الإستراتيجية ووجد المغول أنفسهم يواجهون قوة تعادل قوتهم ، أو وضع قوي للأعداء ، أو أعداد تفوق أعدادهم بكثير ، فإنهم عندئذ يستخدمون تفوقهم فى المناورة والاتصال حتى يسترجوا العدو إلى مكان يلائمهم كي تدور فيه رحى الحرب والقتال ؛ وكانت التكتيك المفضل لديهم التظاهر بالانسحاب الذي يستهدف التربص بالعدو الذي يشغل أماكن قوية كي يطارد القوة المغولية للوصول إلى الفخ الذي سبق إعداده بعناية . وهناك تكتيك آخر وهو محاولة سيرهم فى طريق جانبي تاركين الأماكن القوية للعدو ، ثم الإيقاع به فى الفضاء الفسيح أثناء إعادة تنظيم صفوفه لمجابهة المغول فى وضعهم الجديد . كما قد يرسل قائد الجيش المغولى كتائب تجاوز خطوط العدو

وحوله بينما يكون الجيش الرئيسى مشتبكا فى القتال مع جيش العدو ، وبإشارة من القائد تطبق تلك الكتائب على جيش العدو أو تهاجم أحد الجناحين أو المؤخرة .

٦ - تصدع الجغرافية السكانية

لم يقتصر الدمار الذى خلقه المغول على مجرد المدن والقرى . وإنما لحقت أضرار جسيمة بأنظمة شبكات الري مثل تلك التى فى خراسان (شمال فارس) ، وفارس نفسها ، والعراق (الجزيرة) - وهى ثمار ما يزيد على ٥٠٠ سنة من الجهود الجماعية التى حولت الصحارى والأراضى المعشوشبة إلى ربما أجود الأراضى الزراعية إنتاجا على وجه الأرض . ولم تبرا مناطق كثيرة من الهجمة المغولية ولم ترجع إلى مستوى عهدها السابق على الخراب المغولى . وتدل الصور الملتقطة من الفضاء على أن العراق ربما لا تروى ولا تزرع أكثر من ٦٠% من الأراضى الزراعية التى كانت مستخدمة فى عهد الخلفاء العباسيين عام ٨٠٠ م .

كما أن القاعدة المغولية ، بموقفها العرضى حيال الزراعة والضرائب الباهظة التى المفروضة على المزارعين ، ثبَّطت من أعمال الإصلاح . وانزلت العراق ، التى كانت تتمتع بالألوف من الفائض الزراعى منذ عهد سحيق يرجع إلى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، إلى زراعة توفر العيش بالكاد .

وتوحى الدلائل بهبوط مأساوى فى عدد السكان يساوى بكل المعايير أسوأ كوارث التاريخ. وتدل الدراسات التى أجريت فى منطقة ديارلا القريبة من بغداد على أن هذه المنطقة ،

التي ربما كان تعداد سكانها ٩٠٠.٠٠٠ نسمة في أيام العباسيين حوالى سنة ٨٠٠م ، تعول حوالى ٦٠.٠٠٠ نسمة في حوالى سنة ١٣٠٠م تحت الحكم المغولى . ونسبة الهبوط فى عدد السكان هذه وقدرها ٩٠ % أرجعت المنطقة إلى مستويات السكان فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . ومن الواضح أن أقل من نصف الأراضى التى كانت تُزْرَع فى تلك المنطقة أيام العباسيين ما يزال فى الإمكان زراعتها فى سنة ١٣٠٠م . كما ولم تكن تلك المنطقة حالة معزولة أو حالة متطرفة . ويظهر إحصاء عثمانى للسكان أجري فى ٢٥١٩م فى سوريا الحديثة وفلسطين أن أقل من ٦٠٠.٠٠٠ نسمة يعيشون فى منطقة كان سكانها حوالى ٤ مليون فى أيام الإمبراطورية العربية .

ويقول المؤرخ العسكرى جيمس دونيجان *James Dunnigan*

إن للغزوات المغولية وقعا تناول العالم على سعته (أنظر الجدول).
 فبالإضافة إلى القتل المباشر ، كانت هناك أمراض ومجاعات دائما ما تحدث فى أعقاب الجيوش المغولية . فكانت المنازل والأدوات الزراعية تُدمر على نطاق واسع . ومنذ آنذاك كان مزارعو العصور الوسطى يعيشون على هامش البقاء على قيد الحياة ، وكان حصاد أو حصادان كفيف بمجاعات بالجملة والوفاة من جراء المرض . ولم يكن ذلك حادثا عرضيا ، "فكان المغول يرون فى تدمير المصادر الزراعية وسيلة لمنع ضحاياهم من أن يبرأوا من محنهم ويحاربوهم انتقاما".

لقد تسببت حملات المغول ذات النطاق الواسع فى وجود عامل مميت بصورة حتى أكبر فى الساحة . فالأمراض البوابية التى مكثت

طويلا فى منطقة واحدة ، حملتها الآن الجيوش المغولية فى تحركها السريع إلى أماكن لا تتوفر لسكانها مقاومة لتلك الأوبئة الغريبة . وأوضح ما يعرف عن تلك البلىا "الطاعون الأسود" ، ولكن يقينا لم يكن الوحيد .

إن الغزوات المغولية وما ترتب عليها من قاعدة صارمة فى الأراضى الواقعة شرق الفرات تركت تراثا من المدن المبعثرة ، وتناقص عدد السكان ، وتكنولوجيا جرى قلبها رأسا على عقب ، الأمر الذى قطع أساس الإزدهار والنجاح الذى دام فى الشرق الأوسط لخمسة آلاف سنة .



جدول السكان (بالملايين) في مختلف المناطق في بداية القرنين ١٣ و ١٤

المنطقة	(١٢٠٠م)	(١٣٠٠م)	التغير %
الصين	١١٥ر٠٠	٦٨ر٠٠	% - ٢٥ر٢
كوريا	٤ر٠٠	٣ر٠٠	% - ٢٥ر٠
منشوريا	٤ر٥٠	٤ر٨٠	% + ١ر١
تركستان الشرقية	٢ر٢٠	٢ر٣٠	% + ٤ر٥
إيران	٥ر٠٠	٣ر٥٠	% - ٣٠ر٠
أفغانستان	٢ر٥٠	١ر٧٥	% - ٣٠ر٠
العراق	١ر٥٠	١ر٠٠	% - ٣٣ر٣
أوروبا	٥٨ر٠٠	٧٩ر٠٠	% + ٣٦ر٢
الهند	٨٦ر٠٠	٩١ر٠٠	% + ٥ر٨
المجموع	٢٧٨ر٧٠	٢٥٤ر٣٥	-----

المراجع العربية

- ١- ديورانت ، ول، قصة الحضارة : تعريب محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠ م .
- ٢- عبد الرحمن الشرقاوى : أئمة الفقه التسعة ، ج ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ م .
- ٣- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة .
- ٤- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل : البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١ هـ .
- ٥- الهمذانى ، رشيد الدين بن فضل الله : جامع التواريخ فى تاريخ المغول ، تعريب محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، الإدارة العامة للثقافة ١٩٦٠ م .
- ٦- الوينينى ، قطب الدين ، أبو الفتح موسى بن محمد : ذيل مرآة الزمان ، حيدر أباد ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤ م .
- ٧- ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد : زبدة الحلب من تاريخ حلب . تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ، ١٩٥١-١٩٦٨ م .
- ٨- المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤ م .
- ٩- القلقشندي ، أبو العباس أحمد : كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ - ١٩١٩ م .
- ١٠- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦ م .

المراجع الإنجليزية: English References:

- 01. Amitai-Preiss, Reuven.** *The Mamluk-Ilkhanid War*, 1998
- 02. Ashtor, Elihayu,** *Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages* (1976).
- 03. Dunnigan, James F.** Impact of the Mongols on Medieval Population. Cry "Havoc!" 23:25-26 (1998).
- 04. Glubb, John B.** *The Lost Centuries*. London: Hodder & Stoughton, 1967.
- 05. Glubb, John B.** *A Short History of the Arab Peoples*. London: Hodder & Stoughton, 1967.
- 06. Khowaiter, Abdul-Aziz.** *Baibars the First: His Endeavours and Achievements*. London: Green Mountain Press, 1978.
- 07. Marshall, Robert.** *Storm from the East*. London: BBC Books, 1993.
- 08. Muir, William.** *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt AD 1260-1517*. Amsterdam: Oriental Press, 1968.
- 09. Robinson, John.** *Dungeon, Fire & Sword*. New York: M Evans & Compnay, 1991.
- 10. Saunders, JJ.** *A History of Medieval Islam*. London: Routledge and Kegan Paul, Ltd, 1965.
- 11. Sir Steven Runciman,** *A History of the Crusades*, Penguin Books, Cambridge University Press, London, 1991.
- 12. Von Grunebaum, GE.** *Classical Islam: A History 600-1258*. trans. Kathleen Watson New York: Barnes & Nobles Books, 1996.



المحتويات

الفصل	صفحة
تمهيد	٥
الفصل الأول: من هم المماليك	٩
الفصل الثاني: عصر المماليك — خلفية تاريخية	٣١
الفصل الثالث: جنكيز خان — حضارة الجلادين	٥١
الفصل الرابع: هولاکو — مهارة الجلاد	٧٥
الفصل الخامس: سيف الدين قطز — الأسد الهصور	١٠٧
الفصل السادس: معركة عين جالوتن — من معارك المصير الإنسانى	١٣١
الفصل السابع: نظرات	١٥٩
المراجع العربية	١٧٥
المراجع الإنجليزية	١٧٦



المؤلف



- * مترجم بالأمم المتحدة والمنظمات الدولية .
- * عضو اتحاد كتاب مصر .
- * له تراجم ومؤلفات منها :
- المخدرات ، حقائق اجتماعية وطبية ونفسية .
- تاريخ النقود .
- رجل الأقدار (مجموعة قصصية) .
- موسوعة تاريخ الحملات الصليبية .
- المماليك المفترى عليهم (١) شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر .
- * أمضى أكثر من ٢٥ عاما فى تأليف موسوعة الأديان الثلاثة (اليهودية ، المسيحية ، الإسلام) بالإنجليزية والعربية .

هذا الكتاب

- * هذا هو الكتاب الثانى فى سلسلة (المماليك المفترى عليهم) .
- سيف الدين قطز قاهر المغول : ما هى قصة المغول ؟ ما هى حضارتهم ؟ ماذا كان يريد جنكيز خان ؟ ولماذا خربت بغداد وقتل الخليفة المستعصم ؟ وماذا قال مؤرخو الغرب عن معركة عين جالوت ؟ وماذا كان سيحدث لو انتصر المغول ودخلوا مصر ؟ وماذا قال هولوكو لسيف الدين قطز فى رسالته ؟ وماذا قال قائد المغول لسيف الدين قطز بعد هزيمته فى عين جالوت ؟ يجيب المؤلف على كل تلك التساؤلات ويمحص ما جاء فى تواريخ العرب والغربيين على السواء .
- ويبرز المؤلف أهمية الانتصار المملوكى بمقولة شيخ المؤرخين المعاصرين، السير ستيفن رانسيمان :

كان النصر المملوكى فى عين جالوت إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قُذِرَ للمغول التوغل داخل مصر لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش .

ويدعو المؤلف إلى دراسة جديدة جادة للعصر المملوكى ، وينادى بتجلية صورة المماليك العظام حتى تتخذهم الأجيال الصاعدة مثلا أعلى وقدوة تحتذى كي تتحرر الأراضي التى اغتصبها الصليبيون الجدد ، وتعود القدس وقبة صخرتها ومسجدها الأقصى للعرب والمسلمين ، وتتألق سابق أمجادهم .

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الفتح

للطباعة والنشر

أمام كلية حقوق الاسكندرية

ف: ٤٨٤٠٦٦٤ ت: ٤-٤٨٧٠٢٠٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

٢٠٠٥/١٤١٨٧

الترقيم الدولي

I.S.B.N.

977-5245-44-3